قسمة ونصيب

obeikan.com

قسمة ونصيب
مجموعة قصصية
نهي الماجد
الطبعة الأولي .. ديسمبر ٢٠١٣

الغلاف : أسامة علام
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٢٣٣٠
ISBN : 978-977-6412-48-4

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

obeikan.com

قسمة ونصيب

مجموعة قصصية

نهى الماجد

obeikan.com

obeikan.com

بنت العشرين

عندما وقفت أمام المرآة كي تتزين، لم تكن المرة الأولى التي وقفت فيها وهي على هذا الحال!

إنها الدرجة التي يستبد فيها الغضب بالمرء فيؤثر ذلك الصمت الطويل الذي لا يعرف متى نهايته! ببساطة.. لقد ملّت الانتظار، ملّت الأمل وملّت الحلم.. هؤلاء الرجال لا يأتون لرؤيتها وإنما لرؤية «العروس»! تتعجب كل مرة ولا يمكنها التوقف عن ذلك!

كيف يتكبد الرجل عناء البحث عن وظيفة ولا يستطيع البحث عن شريكة حياته، تاركا تلك المهمة لأمّه أو أقربائه؟!

ألا يعد ذلك نوعا من «عدم الاهتمام» بالأمر برمّته؟!

obeikan.com

أحيانا تحدِّث نفسها بأنها قد تريد «رجلا مثاليا»، ربما لأنها لا تملك أي تجارب مع أي رجل من قبلُ، ما يعني أنها لم تواجه العالم وما يخفيه من حقائق مشوهة لأنصاف بشر، لكنها ترجع لتؤكد لحالها أنها ليست مجنونة إلى هذا الحد؛ فهي تعلم أنه لا وجود للمثالية أصلا.. فقط هو عقلها الذي لا يتوقف عن التفكير..

هي تكره الفلسفة، لكن هناك بعض الأسئلة التي تجبرنا الحيرة على التفوّه بها.. بل وأحيانا الهذيان! ركوب الأمواج مثلا أمر ممتع، لكنه سيصير أمرا مخيفا إن فعله المرء وحده!

إنها الحاجة إلى شيء مختلف يصعقها لتفيق من تلك الغيبوبة!

ربما بسبب ذلك قررت أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ستستقبل فيها رجلا غريبا في هذا البيت الذي تحول بالتدريج إلى ما يشبه «استراحة الطريق» أو بالأحرى إلى «ريسيبشن»!

تستمر في وضع الزينة، بل تتقن ذلك بكل جهدها !

في البداية لم تكن ترحب بفكرة «المكياج»؛ فقد كانت ترى أنه ينبغي عليها أن تكون بكامل طبيعتها عند لقائها «العريس المحتمل»، لكن كنتيجة حتمية لتعدد نماذج هؤلاء الرجال فضلت وقررت ألا تبدو حقيقية أمام أي رجل يأتي بهدف الزواج! فهي لم تعد ترى أنهم يستحقون هذا، أو بالأحرى لم تجد بعدُ من يستحق أن يراها كما هي، من دون قناع ملون، وعلى الرغم من بهجته فإنه لا يزال يخفيها!

يأتي صوت أمها لينقذها من هذا المونولوج الداخلي المشوش.. عليها الآن أن تخرج للضيف الجديد كي ترحب به وتجلس معه لمدة زمنية محددة.. في أعماقها، هي لا تود الخروج أصلا وترفض هذا اللقاء، بل كل لقاء سيأتي، لكن عليها أن تمهد لعائلتها أولا هذا القرار كي يأخذ حيز التنفيذ! خطواتها إلى الصالون تبدو ثقيلة، تتمنى أن تسقط مغشيا عليها أو أن

تعبر هذا اللقاء - بطريقة ما - دون وعي منها.. لكن لا يزال في الوقت الكثير كي يتم فعله، الكثير كي يُقال! أحاديث وتساؤلات وابتسامات ونظرات وترقب.. وربما تمثيل أيضا! ها هي تراه كما اعتادت رؤية غيره في البيت وفي الطريق وفي الجامعة!

إنه مثل الرجال، مثلهم بالضبط على ما يبدو!

حسنا، يبدو ألا جديد في الأمر.. البداية تخبرها بذلك!

«انتي ليه حاطة مكياج؟!».. قالها بعدما تغير وجهه كله!

انتظر حتى تركهما الأب ثم قالها في شيء من.. الشغف!

حسنا، قد لا تكون تلك هي الكلمة المناسبة، لكنها في النهاية تشعر أن ذلك ليس محض فضول؛ فهناك ما هو أبعد من ذلك في سؤاله، في نبرة صوته، في نظرته نفسها! «انتي ليه حاطة مكياج؟!» سؤال بسيط للغاية، لكنها غير قادرة على الإجابة.. تبدو كأنها تبحث عنها!

التفكير، انتقاء الكلمات المناسبة، تكوين الجملة لتتكون الإجابة!

خطوات يفعلها المرء أكثر من مائة مرة في اليوم، وهي بالذات تجيد فن السؤال والإجابة، لكن ماذا حدث لها هذه المرة؟!

ربما نظرته، ربما وجهه، ربما هو نفسه بعدما تغير بهذه السرعة في طرفة عين.. ربما كل تلك الأشياء هي التي أشعرتها بذلك الارتباك! حسنا، عليها الآن أن تنشغل بالنظر إلى أي شيء آخر! الساعة مثلا، لكن كلا.. الساعة تذكرها بالوقت وهي تكره الوقت وتحاول قدر الإمكان تجاهله!

إذًا فلتنظر إلى المكتبة.. لكن، ما كل هذه الكتب؟!

عليها أن تعترف الآن أنها توقفت منذ فترة طويلة عن القراءة، قد يكون ذلك هو السبب الذي أسهم في حيرتها التي لا تتوقف حيال كل شيء تقريبا! هل هذه فلسفة؟! ربما.. إنها لا تعلم بالضبط! كل ما تعلمه جيدا هو أنها ترغب في الهروب إلى حجرتها، لتزيل ذلك القناع الذي تشعر به

يقيد ملامح وعضلات وجهها كله!

- المكتبة دي مكتبتك، مش كده؟

- (بصوت غابت عنه نبرته المميزة) آه.. آه مكتبتي!

- قريتي كل الكتب دي؟

- (بتلعثم) يعني.. قريت شوية و... ولسه فيه كتب ما قريتهاش!

- انتي برضه ما جاوبتينيش على سؤالي!

- وانت بتسأل ليه؟!

- حابب أعرف!

- عادي، أي بنت بتحب تحط مكياج!

- بس انتي مش من البنات اللي بيحبوا يحطوا مكياج!

يبدو أن الأمر سيصير مسليا! إنه يتحدث كما لو أنه يعرفها حق المعرفة! على الرغم من أن هذه هي زيارته الأولى، وأنهما بحكم المنطقة جيران إلى حد ما، إلا أنها لا تعرفه أصلا، ولا تذكر حتى أنها رأته صدفة !

إذًا فكيف يتحدث بهذه الثقة كما لو كان بالفعل يعرفها ؟! ربما هي طريقة يتبعها كي يجعل من نفسه مختلفا في عينيها حتى يوقعها تحت تأثيره، لكن ثمّة أمرا غريبا ! إنها تصدقه، للأسف تصدقه! ماذا يكون إذًا؟! هل يعاني اضطرابا عقليا ؟! لكن عليها أن تثبت ذلك أولا؛ فالإحساس وحده لا يكفي في مثل هذه المواقف!

- وعرفت منين بقى؟!

- إحساس..

- دي قعدة تعارف بالمناسبة، الإحساس اللي بتتكلم عنه ده لسه بدري عليه!

حاولت أن تقولها بفظاظة، لكن صوتها الأقرب في نبرته إلى صوت الأطفال خفف من حدة تلك الكلمات، لتسمعه يقول:

- بس أنا أعرفك!

- وأنا أول مرة أشوفك! ما افتكرش إني قابلتك قبل كده!

- لأ، إحنا اتقابلنا قبل كده، أنا أفتكر لكن انتي لأ!

يصمت للحظات بدا خلالها كمن يبحث عن الكلمات كي يكمل حديثه! أما هي فكانت تراقبه باهتمام وتشعر أنها على وشك سماع ما سيدهشها أكثر!

إنها لم تعد ترغب في الهروب؛ فالفضول يسيطر عليها الآن!

وكيف لها أن تهرب وهي لم تتأكد بعدُ من صحة شكوكها! هل هو عاقل أم مجنون؟! و«مجنون» هذه تقصدها بكل ما تحمله الكلمة من معنى كامل للجنون! ذلك الاختلال العقلي والاضطراب النفسي والشرود والتحول المفاجئ في ردود الأفعال! الآن تبدو الفكرة في رأسها مخيفة! هل انتهى كل العقلاء ولم يتبقَّ سوى المجانين كي يأتوا إليها بهدف الزواج؟!

* * *

obeikan.com

يخرجها صوته من حجرة الأفكار المزدحمة التي باتت تقضي فيها كل وقتها وقد بدأ في الحكي! كان ذلك منذ سبعة عشر عاما، عندما كان جالسا يستقبل عزاء أبيه!

كانت ليلة خريف تنذر بشتاء ليس ككل شتاء!

جميعهم كانوا يجلسون من حوله وصوت تلاوة القرآن يتخلل الهواء الذي يتنفسه، إلا أنه كان يرتجف من البرد! لم يود البقاء أكثر من ذلك، لم يكن يريد الاستمرار في ادعاء الثبات والصبر!

لقد كان يرغب في الهروب إلى حجرته والانكماش فوق سريره والتطلع إلى صورة والده علّه يشعر ببعض الأمان! كان يبدو في جلسته كتمثال شمعي، لا يحمل وجهه أي ترجمة لما يشعر به!

كان يتجنب النظر إلى الظلام.. النظر فيه! لم يعلم بالضبط هل هذه بدايات خوف طفولي أم بداية اكتشاف لحاله بعدما صار دون أب! كلما وجد نفسه يواجه هذا الظلام الممتد أمامه يغمض عينيه في سرعة ليسمع نبضات قلبه تتزايد كأنه يركض هربا من أشياء لا يعرفها، لكنها كانت نظرة.. نظرة بسببها استمر في تأمل الظلام بل وفحصه! نظرة أيقظت فيه ذلك الفضول الذي سيطر على بدايات الخوف والحزن والركود!

بدا له خيال صغير يحاول المقاومة كأن الظلام يبتلعه! نهض متجها إلى تلك اللوحة السوداء الكبيرة فوجدها أمامه!

نظراتها لم تكن غريبة على ذاكرته، ربما رآها من قبلُ وهو ينظر لحاله في المرآة!

عندما اقترب منها لم تصرخ، لم تهرب، بل ظلت واقفة من دون حراك تبادله النظرات !

كأنها تحثه على إكمال ما بدأه، والبدء فيما يود فعله!

كان يعرف بيتها؛ فلقد تعود أن يراها مع أمّها توزع الابتسامات على العالم كله حتى أحجار الطريق، وتسير بخطواتٍ صغيرة لكنها تأكيدية! تسير كمن يرغب في غرس أقدامه في الأرض، ربما في زمنٍ آخر كانت لتكون شجرة!

حملها في رفق وفي لحظات كانت بين ذراعيه.. بمجرد أن وضعت رأسها فوق كتفه شعر بما يشبه التوازن، كأن أحدهم قد أمسك بيده قبل أن يسقط! وما هي إلا خطوات قليلة حتى أصبحا جزءا من تكوين الظلام الذي لا ينتهي!

وجدها تضع كفّها الصغيرة على صدره، فوق قلبه، وراحت تحرك يدها كمن يربت عليه! توقف في منتصف الطريق، وفضَّل أن يميل برأسه فوق رأسها الصغير حتى شعر بزفراتها القصيرة الحارة تتسلل عبر أذنه إلى جسده كله، لتُشعره بذلك الدفء الغائب!

حينئذ لم يكن يشعر بأنه المسئول عنها، بقدر ما كان يشعر بأنها المسئولة عنه!

جاء صوت الرعد ليعلن بقوة عن قدوم الشتاء!

كان عليه أن يكمل الطريق على الرغم من الظلام، لكن قبل أن يبدأ السير مجددا، بدت عينها واضحة أمامه! كان يراها بوضوح شديد! نظرات لم يفهمها، لكنه على أثرها توقف عن البكاء!

عجبا، إنه لم يكن يعلم أنه يبكي أصلا! يستمر في السير وتستمر هي في احتضان قلبه!

في كل خطوة كان يتمسك بها أكثر، يتمسك بها حد الاعتصار!

الغريب أنها كانت ساكنة تماما، لم تحاول الإعلان عن ضيقها ولو بتأوهات ضعيفة! يبدو أنها لم تكن تشعر بالألم، كأنها أدركت أنها صارت جزءا من جسده! لم يكن يرغب في الوصول، إلا أنه في النهاية كان لا بد له أن يصل!

حملها والدها في لهفة وراحت شفتاه تتحركان أمام عينيه!
لم يسمع شيئا؛ فأغلب الظن أن الأب كان يشكره على ما فعله! قبل أن يذهب، منحته نظرة أخرى مختلفة، بسببها وجد حاله يبتسم في شيء من فرحة شعر بها كالوخز في قلبه!
لم يحاول أن يعاتب حاله على ما شعر به وإنما انطلق بجسدٍ جديد، مستمتعا بالمطر، وغير آبه بالظلام!

* * *

«أنا!».. أطلقتها بعدما توقف عن الحديث!
أطلقتها وصمتت، لكن نظراتها لم تصمت!
إنها تريده أن يكمل، أن يتحدث ويستمر في الحديث دون توقف!
- أيوه إنتي! أنا عارف إن الموضوع غريب وممكن.. يضحك، لكن الغربة اللي كنت عايشها برّه عوِّدتني أقرر تقريبا كل صغيرة وكبيرة في حياتي، فما كنتش عايز حد يختارلي بقى اللي هتقضي معايا بقية عمري!
(توقف عن الحديث للحظات كان يتأملها فيها جيدا، بدت له كأنها منوّمة فلوّح بيده قائلا) انتي معايا؟ سامعاني؟!
لم تكن تتحمل.. غادرته هاربة إلى حجرتها ثم أغلقت الباب جيدا!
حتى هذه اللحظة لم تتأكد بعدُ من صحة شكوكها! حسنا، فلتسأل بطريقة أخرى علها تجد الإجابة: هل هو عاقل ؟! لا.. إذًا فهو مجنون ؟! كلا.. فما يكون إذًا ؟! إنها لم تدرك ولم تشعر سوى بصدقه ! الكارثة أنه يتحدث بصدق !
طريقته في ممارسة الصدق غريبة ومختلفة!
هل تبالغ فيما تشعر به، أم أنه من شدة رغبتها في حدوث الأمر قد

حدث بالفعل؟! ربما هي الآن في حالة استيعاب مواجهة حلم قد تحقق، ولم يخرجها مما هي فيه سوى صوت الضجة التي تسمعها بالخارج، يبدو أنه على وشك الانصراف!

غابت لثوانٍ ثم هرعت إلى الباب راغبة في توديعه!

هذه المرة كانت مختلفة بعدما أزالت «المكياج» وصارت أمامه دون قناع !

نظر لها وابتسم في شيء من الفرحة شعر بها كالوخز في قلبه، ثم تابعته بعينيها وهو يسير تحت المطر، وغير آبه بذلك الظلام!

obeikan.com

obeikan.com

لا تكن صديقي

«أنا عارفة إنك ممكن تستغرب، لكن ع الأقل مش هتفهمني غلط..

- تتجوزني؟»..

لا أدري كيف تفوهت بها، لكنني لم أكن أمزح، ولم أكن أستهزئ به!

كنت أعي ما أقول، كنت صادقة إلى أبعد حد، إلى أقصى درجات الصدق التي لا يبالي المرء بعدها بأي شيء!

ربما بسبب ذلك أحسست بتلك الراحة!

صرت أتنفس بانتظام وبهدوء وبعمق وأنا أتطلع إليه في انتظار ظهور أي رد فعل له!

لأول مرة أشعر بالضيق لكونه أعمى..!

عيناه مفتوحتان لكنهما ميتتان، لا تنظران حتى باتجاهي وربما ازدادتا شرودا أيضا!

obeikan.com

فقط يده هي التي كانت تتحرك وتربت فوق كتبه بالضبط كما كان يفعل منذ ساعة وقبل أن أجلس معه حتى!

أشعر بالراحة، لكنني على وشك الغضب أيضا؛ فأنا عديمة الصبر!

لكن مهلا، عندما يوجَّه للفتيات هذا السؤال فإنهن يطلبن «مهلة للتفكير»، ليس لكونهن فتيات، لكن لأن الأمر نفسه جدير بالتفكير.. هنا قلت قبل أن أذهب:

«أنا مش عايزة طبعا إجابة دلوقتي، أنا هديلك فرصة تفكر براحتك»!

إنني أهرب الآن، لكن خطواتي صارت أكثر حرية!

تحررت للتو من أشياء أجهلها، أشياء لا أرغب في معرفة كنهها، كانت كالضيف الثقيل الذي استطعت طرده بالصدفة في لحظة شجاعة نادرة !

صحيح أنه سيتأكد بشكل أكبر أنني مجنونة - وذلك ليس عيبا - إلا أني لن أسقط من نظره وسأظل كما أنا.. حرة وأملك كرامة غير منقوصة، حتى إن ردني فحتما سيحدث ذلك بلطف! اتجهت إلى المكتب، ألملم الأوراق وأنظمها استعدادا للرحيل!

لم أرغب في البقاء وقتا أطول كالعادة، لم أتلكأ..كأنني أود الرحيل من المكان بأكمله، كي أتركه حرا، يفكر أو يصمت أو يقرر.. أو حتى يتجاهل الأمر برمته!

ما إن استدرت حتى وجدته أمامي، ينظر لي بغضب شديد لم أرَه في عينيه من قبل!

إنه الآن في أوج ظهوره على حقيقته.. «انتي كنتي قاعدة مع الواد ده بتعملي إيه؟!».. غضبه فريد، لكنه لم يثر خوفي أو شعوري بالذنب لكوني أغضبته !

الحقيقة أنني شعرت بالقهر!

إنه يستمر في رجمي بالاتهامات حتى وهو صامت!

obeikan.com

فليكن، فأنا بالفعل أشتاق إلى هذه المواجهة كي أعرف فقط ما هو.. «عرضت عليه الجواز!» قلتها بهدوء شديد، قلتها لأنها تريحني ولم أكن أقصد بها أن أزيد من غضبه!

إنني حتى كنت مندهشة من رؤيته منزعجا إلى هذا الحد؛ فأنا لم أكن أتوقع ذلك على الإطلاق!

أما هو فقد تبدل حاله تماما، ليبدو لي كمن ينظر إلى مجنون!

خليط من الشك والسخرية، هذا كله وهو لم ينطق بعدُ !

- انتي اتجننتي ؟! إزاي توصلي نفسك للدرجة دي ؟! فين كرامتك ؟!

- محفوظة ومتصانة ! أنا آه يمكن أكون مجنونة لكن لسه عندي كرامة، ولو ما كنتش مطمنة على كرامتي معاه ما كنتش قلتله حاجة زي دي !

- فوقي لنفسك.. عشان يبقى فيه جواز لازم يبقى فيه حب، وده مش حب، دي شفقة !

- أنا عارفة إن الناس هتشوفها كده، لكن أنا وهو شايفينها صح !

أنا مش عيّلة صغيرة، وأعرف أفرق بين الحب والشفقة.. والصداقة مثلا!

- صداقة... تبقي لسه متضايقة ؟!

- خالص ! أنا بس كنت من شهر رافضة الفكرة، لكن لما قابلته وعرفته، شفت كل حاجة على حقيقتها!

- (بسخرية) وهو ده بقى اللي فيه الشفا ؟!

- (بابتسامة يأس) بتتريق ؟! بس تصدق عجبتني الكلمة ! أصل الواحد بيعيش طول عمره تقريبا ياخد في مسكنات تساعده يكمل في الحياة لحد ما يلاقي العلاج الحقيقي.. بس ساعات العلاج ده بيبقى الموت نفسه... اللي أنا مستغرباه إن الدنيا طلعت محتاجاني.. فبعتتهولي بدل الموت !

- بس انتي هتبقي خدامة مش زوجة !

- (بنبرة أقرب للصياح):

أنا قابلة أكون خدامته أحسن ما اكون خدامتك، تعاملني بمزاجك، مرة صديقتك، ومرة حبيبتك، ومرة مش عارفة إيه !

ما هو طبعا، هتشوف إيه فيَّ غير واحدة عدت التلاتين، بتشتغل وقرشها في إيديها وفوق ده كله عايشة لوحدها ! هتحتاجك في إيه ؟! هتحتاج الراجل أصلا في إيه ؟! لأ وفوق كل ده واحدة مش متشافة، مالهاش في دلع البنات اللي بياكل مع الرجالة كويس قوي! مش ده اللي انت شايفه؟!

- ...

- عمرك تعبت نفسك ولو دقيقة وفكرت في حالي بطريقة مختلفة؟! فكرت إن مفيش بني آدم في الدنيا دي بيحب يبقى لوحده بس لقيت نفسي غصبٍ عني بواجه كل حاجة لوحدي لحد ما اتعودت ؟!

فكرت إنه مش معنى إني اتعودت يبقى أنا مبسوطة وراضية بكده أصلا؟! انت ممكن تضحك عليَّ دلوقتي لما أقولك.. عارف يعني إيه النور يقطع عليك وتبقى عايز تنده على حد صوته يطمنك.. لكن مفيش حد؟!

- انتي ليه مش مصدقة إني.. بحبك ؟!

- حتى إذا صدقت فده مش كفاية!

على فكرة انت مش محتاجني أنا، انت محتاج وجودي وبس.. يمكن اكتشفت إني ما انفعش أبقى فتاة أحلام، ويمكن عشان شايف إني بكل الظروف اللي عدت عليَّ دي هبقى زوجة نكدية!

انت م الآخر كده استحليت الوحدة مش بس اتعودت عليها، ولو انت مش حاسس إن فيه حاجة ناقصاك يبقى أنا ماليش لازمة! أنا لا عايزة أخوّة ولا صداقة ولا أي حاجة تانية !

أنا عايزة أتجوز، وأتجوزه هو بالذات.. انت متخيل ؟ !

ده أول راجل أقابله ما يجرحنيش بعينيه ولا بلسانه ولا بإيديه!

أول راجل ما يسألنيش مرتبك كام ومحوشة ولا لأ؟
أول راجل مش مهتم يعرف إذا كنت ناجحة في شغلي لا قدر الله ولا عايزة أسيب الشغل خالص، أول راجل ما يعاملنيش على إني مشروع عايزله دراسة جدوى ويا ينفع يا ما ينفعش!
- (بلهجة حادة بدا فيها كمن استنفد كل وسائل إقناعه.. بهذه السرعة) فكري كويس، الشفقة دي هـ...!
- افهم بقى، دي مش شفقة، ده احتياج!
ما تستغربش لأني اكتشفت إن الأهداف المشتركة هي اللي بتطول عمر أي علاقة على فكرة.. بعدين كل واحد فينا لقى اللي محتاجه عند التاني!
هو أعمى وأنا واحدة مش عارفة تبقى مبسوطة!
اعتبرها يا سيدي إعاقة جديدة ما تقلش خطورة عن أي إعاقة تانية!
- ومعاه انتي ضامنة تبقي مبسوطة؟!
- مفيش حاجة مضمونة في الدنيا دي!
لكن اللي أقدر أقولهولك إني لما بلاقيه محتاجني، إن شالله حتى عشان أناوله إزازة الميه، بحس إني مهمة.. بحس إني عايشة!

* * *

البيت يؤلمني، أو بمعنى آخر: اللابيت يؤلمني !
البيت جدران وبشر، حين يختفي أحدهما سيفقد المرء إحساسه بوجوده في الحياة ! سيأكل كالأموات، ويشرب كالأموات، ويتحرك كالأموات ! لكن قبل أن أموت، كان عليَّ أن أتحدث إليه ! إنني على يقين أنه على علم بما فعلته اليوم !
هرعت إلى صورته بمجرد دخولي ولم أحاول حتى الانتظار كي أبدل ملابسي! إنني أريد التخلص من كل ما أحتفظ به علّ ذلك ينجيني من الغرق.. أبي، لم أكن أعلم أن مرضك كان يمنحني الحياة!
كان الدليل الوحيد على أنني أعيش في هذا العالم!
هل تعلم أنني اخترت شخصا عاجزا كي يعود شعوري بالمسئولية مجددا؟!
ذلك الشعور الذي أدمنته وتعودت عليه طيلة وجودك!
بالتأكيد أنت تعرف، إنني لم أختره فقط.. وإنما أريده بشدة!
أستطيع تخمين ما تفكر فيه وما تريد قوله لي! أنت تقول إن كل من اخترتهم في الماضي كنت أريدهم أيضا بشدة! إنك محق، لكنني كنت في أوج ظمئي!
الحاجة الشديدة تجبر المرء على عدم الاختيار، حتى إن استطاع ذلك فحتما سيكون اختيارا خاطئا !
الغريب أنني كنت أستمر في الاختيار أو «التخبط» على الرغم من الألم! اختيار يعقبه اختيار، ألم يورث ألما.. يبدو أنني اعتدت تعذيب حالي! بت أوقن أنني إن استطعت الهجرة إلى بلاد أخرى سأتمكن من الحب والزواج وتكوين أسرة !
أجل، كنت أشبه بمريض الإنفلونزا.. يأكل بـ«غِلّ» علّه يشعر بمذاق أي شيء! فكرة الانتحار كانت تراودني من حين لآخر، وقد كنت أحاول تبرير ذلك أمام حالي وأمام الله!

الله الذي لن ترضيه رؤيتي وأنا أبتلع ذلك الشعور بالغربة !
فلقد كنت بحاجةٍ إلى أن يفسّر لي أحدهم مرادفات غامضة صارت تحاصرني بدلاً عن البشر ، فتزداد وحدتي قوةً على البقاء .. و لا أخفى عليك ، فقد كنت أحياناً أشعر بأنني أعيش وحدة مزيفة ؛ فجميع من حولي لم يعودوا مقنعين كفاية بالنسبة لي، إلا أنه شيئا فشيئا غادرني الجميع أو غادرتهم، كأنه كان لا بد من ذلك على أي حال.. لتصير وحدتي بعدها هي الحقيقة الوحيدة في هذا العالم !
إنني ببساطة سئمت استجداء الاهتمام، سئمت التفكير قبل أن أتفوَّه بكلمة، سئمت خشيتي من رؤية لافتة «مغلق» فوق وجوه البشر، سئمت ضم ذراعي إلى صدري كل ليلة حتى يتوقف الألم، سئمت معدتي المستمرة في هضم كل شيء، سئمت قدرتي على التنبؤ ليحدث بعدها كل ما كنت أخشاه بالفعل !
إنني لا أرفض الشعور بالضعف، فقط أرفض ألا أجد مأوى أختبئ فيه! على الرغم من ذلك كان بعضي يرغب في البقاء على الرغم من سكون الموت الذي يحيط بي؛ لذلك فقد ظل الانتحار مجرد فكرة سرية في رأسي! بت أمارس فعل الحياة دون روح، أضاجعها دون حب، صارت أشبه بفيروس مزمن يسكن جسدي! أخبرني ماذا كان عليَّ أن أفعل وأنا أجدك تتلاشى ويختفي نبضك من الحياة شيئا فشيئا ؟!
علمت أنك سترحل، ولذلك كنت أبحث عمن يحاول ملء هذه الفراغات داخلي ومن حولي !
أعترف أنني لا أعلم ماذا أريد.. هل أريد زوجا أم أبا أم صديقا ؟!
إنني حتى أجهل هدفي من الزواج! كل ما أعرفه وعلى يقين منه أنني أريد من يحتاج إليَّ، من يختارني كل يوم، من يكمل ذلك المكان حتى يعود بيتا كما كان في الماضي !

إنها المرة الأولى، منذ سنوات من اللامبالاة، التي أشعر فيها أنني أهتم لأمر ما في حياتي.. إنها معجزة !

صرت أهتم لأمري ولأمره أيضا! أفكر، وأحاول تخيل تفاصيل عالمنا معا!

ما أعيشه هو احتياج قابل لأن يصبح حبا! أستطيع القول إنه حب يتكون!

صار الأمر مختلفا فجأة بعدما مللت العيش بمفردي، السير وحيدة، البقاء في ذلك المنفى والاستسلام لهذا السجن الفريد من نوعه !

سجن من دون حراس أقضي فيه فترة عقوبة لا أعلم متى ستنتهي ! إنني حتى لا أعلم هل أنا مذنبة أم لا.. لكن.. ما هذا الصوت؟! إن أحدهم يتصل بي!

لم أصدق عندما قرأت اسمه على الشاشة الصغيرة لهاتفي المحمول !

إنني أسمع صوت نبضات قلبي بالضبط كمن ينتظر نتيجة الامتحان!

أدرك الآن مدى تهوري، إنني غير قادرة على مواجهة نتيجة ما قمت به!

لكن ما حدث قد حدث، أو إن ما حدث كان لا بد له أن يحدث !

قررت أن أرد وأنا أحاول بكل جهدي إخفاء ذلك القلق والارتباك في صوتي! لم أقل سوى: «ألو!»،

لأسمعه بعدها وهو يقول:

«ولأنه ما كانش يصح أسيبك انتي اللي تقوليها، لكنك سبقتيني وطلعتي أشجع مني، ولأني محتاجك وما أظنش هلاقي زيك.. تتجوزيني؟»..

سوق الجواز

وقفت «حنان» تتابع المشهد باهتمام بالغ وبدهشة شديدة، لتبدو وسط الجموع كالغريبة على الرغم من أنهم أقاربها! كان «خالد» - ابن عمها - يجلس في «الكوشة» بجانب عروسه «هالة»، أو بمعنى أدق بجانب الكرسي الذي كانت تجلس عليه «هالة» منذ دقائق!

«هالة» التي خلعت حذاءها وراحت تركض فوق المسرح بفستان الزفاف وراء مجموعة أطفال يحاولون استفزازها بكل الطرق الممكنة التي يعرفونها ويمارسونها بمهارة! عندما تساءلت «حنان» عما يجري أجابتها إحدى النساء بأن هؤلاء زملاء «هالة» في المدرسة !

obeikan.com

إذًا فالعروس ليست مختلة عقليا كما ظنت وإنما هي تلميذة في المرحلة الابتدائية وما تفعله أمر طبيعي للغاية بالنسبة إليها، بل وإلى الجميع أيضا! الجميع الذين كانوا ينفجرون في الضحك، وهم يرون العريس جالسا في قمة التوتر، يصرخ في العروس تارة ويتحدث إلى المهنئين من حوله تارة أخرى!

أما العروس فقد ضربت بكل ما حولها عرض الحائط وراحت تعلن عن ذاتها الطفولية بتلقائية شديدة! لقد تمرد جسد «هالة» على عقلها وعلى الأيام أيضا! كان فستان الزفاف يعلن عن ذلك بتحدٍّ! صدرها المكتنز القافز معها، عنقها المثالي الأبيض، خصرها الضيق الممتلئ، وما خفي كان أعظم!

الاكتفاء بمشاهدة ما يظهر على المسرح أمر يثير الفضول أكثر مما يخمده؛ فالكواليس تساعد على التفسير بدرجة أكبر، تسهم في كشف الحقيقة، هذا إن لم تكن الكواليس هي كل الحقيقة؛ لذا أدركت «حنان» أنه عليها معرفة تفاصيل أكثر عن هذه الزيجة الغريبة؛ فلقد أتت من القاهرة وكل ما تعلمه أنها ستحضر زفاف ابن عمها وفقط!

لكن الأمر يبدو مختلفا إلى حد يثير الفزع.. تتجلى أمامها لعنة الرُخص التي صار الجميع يمارسها على الجميع في وطن كهذا استجابة لغريزة البقاء.. إنها ببساطة مقاومة الظلم بالظلم!

كانت تدرك في كل زيارة سنوية لها كيف صارت الحياة في الريف المصري! كل شيء هنا في حياة الفرد يتم التخطيط له بعناية حفاظا على الأجيال الجديدة.. «الأبناء»!

«خالد» على سبيل المثال أحد هذه النماذج المصنعة في هذه البيئة! لطالما كانت تجده دوما محض آلة، عقلها مكشوف يسهل التعديل فيه من دون عناء!

ظل يسعى بكل جهده إلى الثانوية العامة، وعند بلوغه هذه المرحلة ووضعه في القسم العلمي - بناء على رغبة الأهل كي لا يكون أقل من باقي الصبية - راح يركض في دائرة الدروس الخصوصية كي يحصّل أكبر مجموع ممكن، وبعدُ، حاول والده أن يجد له مكانا في كلية الشرطة أو أي كلية عسكرية، المهم أن يصير مستقبله مضمونا ومعروفا، أو كما كان يقول لولده: «مفيش طريق سالك، لكن خليك في الطريق المتوضب، اللي تبقى عارف آخره إيه»!

لكن «خالد» لم يستطع الالتحاق بأي من هذه الكليات، والسبب مبهم إلى حد ما! فهناك من يقول إن «الواسطة» لم تكن قوية بما يكفي، وهناك من يرجع السبب إلى «المبلغ المتواضع» الذي تم تقديمه للواسطة فلم يحمسها للعمل بالدرجة المطلوبة، وهناك من سمع أن «خالد» كان يفشل في أحد اختبارات الالتحاق بكل كلية، أما عن السر نفسه فقد ظل حبيس جدران الدار!

هنا قرر الابن الالتحاق بأي كلية عادية متواضعة المصاريف، وذلك كي يضمن حصوله على «مؤهل عالٍ» بحكم العادة، على الرغم من علمه في قرارة نفسه بأن تلك الشهادة لن تمنحه عملا أو دخلا أو حتى زوجة! وبعدُ، لم يكن أمام «خالد» وعائلته سوى السفر!

كانت تلك هي أول مخاطرة يخوضها، لكنه لم يكن أول من خاضها ولن يكون الأخير! وقد نجح بالفعل في النجاة من رحلة الموت بأكملها، قاطعا نصف المسافة إلى روما «عوما»، لكنه في النهاية قد وصل، وكان على استعداد لأن يذوق الأمرَّين وأكثر من ذلك في سبيل أن يعيش كهؤلاء الذين كان يشاهدهم وقد عادوا يشيدون قصورا فوق أراضيهم!

وها قد عاد «خالد» في إجازة لمدة شهر واحد فقط، هي الإجازة الأولى له منذ عشر سنوات، ولذا فكان عليه أن يتزوج ليس فقط لكونه قد صار في

العقد الثالث من عمره، لكن لأنه لو لم يتزوج الآن فلن يتزوج أبدا لأنه لن يجد وقتا للزواج بعد ذلك!

واختيار العروس هنا يعتمد على ثلاثة أشياء: عائلتها وبلوغها وجسدها؛ لذا لم يكن الأمر غريبا أن يقع الاختيار على «هالة» وهي لم تتعد بعدُ الثالثة عشرة!

«خالد» صار رجلا، أو بالأحرى عريسا مغريا غير قابل للرفض أو حتى للتفكير!

سيارته اللامعة التي تشق الطريق الضيق وبيته - الأشبه بالقصر - الذي أشرف والده على تشييده يفسران هذا الأمر جيدا.. في الحادية عشرة مساءً انتهى حفل الزفاف!

انتهى مبكرا جدا مقارنة بأي حفل زفاف عادي، لكن من قال إن هذا الزفاف كان عاديا؟!

إن «هالة» لم تجلس عشر دقائق كاملة، كانت دائمة الحركة والصياح والركض وراء أقرانها!

استطاعت «حنان» تخمين أن من طلب إنهاء ذلك كله هو العريس نفسه، بعدما صار «فُرجة» وهو يتابع عروسه في قلق ويصيح فيها كالمجنون ليبدو كالمؤذن في مالطة ! حتى عندما تأبط «خالد» ذراع عروسه متجها بها إلى بوابة البيت الضخمة فإن ذلك لم يفلح في تهدئة أي من الطرفين.. فقد كان متشبثا بذراع «هالة» في قوة لا تنم إلا عن الخوف من ردود فعلها الطفولية، على الرغم من أن وجهه نفسه كان يحمل هدوءا غريبا وابتسامة لا معنى لها !

أما «هالة» فبدت كأنها تحاول إخفاء أشياء كثيرة في التفاتاتها المستمرة، لتبدو كأنها تبحث عن شيء ضاع منها للتو وسط هذا الزحام المخيف!

* * *

إنه «يوم الصباحية»!
ولقد استيقظت «حنان» وبداخلها شعور بأنها على وشك مواجهة ما هو أشبه بـ«نتائج الكارثة»!
لم تحاول بالطبع أن تصرح بما تشعر به كي لا تبدو شاذة أكثر مما تبدو بالفعل! يكفي أنها هنا معروفة بـ«بنت مصر»، وهذه الكلمة كافية جدا لتذكيرها بكونها غريبة! عندما وصلت وأمّها إلى «بيت العريس»
لم تمر لحظات حتى سمعتا صوتا قادما من حجرة النوم، يحمل نبرة بكاء مكتومة، كان يقول: «ماليش دعوة، أنا متعودة ألعب قدام البيت كل يوم جمعة»! وبالطبع لم يكن من الصعب تخمين أنه صوت «هالة»، التي صرخ فيها «خالد» حاملا معه غضب ليلة أمس:
- «انتي ما اتهديتيش يا بت من ليلة امبارح؟ اكبري بقى»..
ثم اختلطت أصوات مختلفة لم تقدر «حنان» على تمييزها، كانت أصواتا نسائية لم يكن من بينها صوت «هالة»!
وما هي إلا دقائق حتى خرج «خالد» إليهما قائلا:
- «ما تدخلي جوه يا حنان انتي ومرات عمي، يمكن تعرفوا تهدوها شوية بدل الفضايح دي، ده أمّي وأمّها وأختها الكبيرة جوه وبرضه مش مبطلة زن!»..
لكن «حنان» لم تقدر على دخول الحجرة بهذه البساطة، وإنما وقفت على بُعد خطوات من الباب المفتوح وراحت تمعن النظر فيما أمكنها رؤيته! هناك زوجة عمها وأم العروس وشقيقتها التي كانت تتحرك في الحجرة لتبدو كأنها تعيد تنظيمها وها قد انضمت والدتها إلى تلك الجلسة، أما «هالة» فلم تتمكن من رؤيتها أو حتى سماع صوتها وسط هذه الثرثرة التي لم تفهم منها شيئا !
اندفعت «حنان» في غضب إلى الصالون، صحيح أنها كانت لا تزال

محتفظة بهدوء ملامحها إلا أن أصابع يدها كانت تدق في حدة فوق حافة الكرسي !

وبينما كان «خالد» متجها إلى الحجرة، أوقفه ما رآه من شرود في عيني «حنان»، اتجه نحوها حتى جلس قبالتها ثم قال:

- ما شربتيش ليه الحاجة الساقعة؟!

- (بيأس) كنت تعرف إنها بتجري ورا العيال الصغيرة؟!

لا يهم لماذا قالتها، أو حتى كيف تفوهت بها هكذا من دون مقدمات.. إنها تعلم جيدا أن هذا الأمر لا يعنيها، لكن كان لا بد لها من إطلاق ذلك، علَّه يخفف من هذا الاختناق الذي تشعر به!

ربما سيتكشف شذوذها بسبب هذا السؤال، لكن أن يكون المرء شاذا في نظر فرد واحد أفضل من أن يصبح شاذا في نظر الجميع!

- أيوه كنت عارف، بس افتكري إن البنات هنا غير عندكوا في مصر.. قصدي في القاهرة ! البنت هنا عارفة تشيل مسئولية جيش بحاله، ما يتخافش عليها يعني!

- بس انت ما اتجوزتش خدامة..

عينها أكملت تلك الجملة المنقوصة ! حينئذ ساد صمت قصير، بدا فيه «خالد» يبتلع كل ما تقوله ابنة عمه كي يفهم ويتمكن من الرد، حتى قال في ثبات وبنبرة عميقة لا تخرج إلا من فم امرئ يعرف الكثير:

- اللي قد «هالة» دلوقتي عارفين يعني إيه جواز!

- ممكن يكونوا عارفين يعني إيه جواز، لكن مش مستعدين ليه!

- مين قال؟! فيه بنات قدها شايلين عيالهم على كتافهم !

البنات حِمل كبير وطالما في الآخر مسيرها للبيت راحت ولا جت يبقى خير البر عاجله، بعدين هو إحنا عملنا حاجة حرام ؟! ده جواز!

يعني شبكة ومهر وعفش وشقة وفرح و...

- (مقاطعة) وعرفي!
- ده مؤقتا بس لحد ما تتم ١٨ سنة، ساعتها نقدر نوثقه..
- مش خايف؟
- ليه؟ هو أنا عملت حاجة غلط عشان أخاف منها ؟!
يا بنتي كل مكان في البلد دي ماشي بدماغ ناسه طالما راضيين ومبسوطين أو حتى بيمثلوا إنهم راضيين ومبسوطين، يبقى الكلام ما منوش فايدة!
- وانت راضي ومبسوط ولا بتمثل؟!
- (بابتسامة اللامعنى) ما اعرفش! بس أنا اتولدت هنا واتربيت هنا وهموت هنا، يبقى أعيش غريب وسط الناس ليه؟!
- و«هالة» راضية ومبسوطة؟!
- «هالة» بتتعود زيها زي أي بني آدم في الدنيا دي!
بعدين هي لسه صغيرة، يعني سهل إنها تتعود بسرعة..
- ١٣ سنة مش كده؟!
- (أجاب هذه المرة بابتسامة منتصر أنهى معركته للتو) كده، بس أحب أقولك إن اللي عندها ١٣ سنة دي بقت مدام خلاص..
عبر خيال سريع استطاع لفت انتباههما.. كانت «هالة» !
نجحت في التسلل وفك ذلك الحصار لتصبح في ثوان خارج الشقة وصوت خطواتها المسرعة فوق الدرج يخفت شيئا فشيئا!
وقبل أن يكون لـ«خالد» أي رد فعل، أخبرته أمها وهي تتجه نحو الباب لتلحق بها: «معلش يا ابني، أنا رايحة أطلعها دلوقتي أهو!»..
لكنه لم ينظر في وجوه مَن حوله، فقط قال بغضب حاول جهده أن يخفيه: «بسرعة يا حماتي عشان بقية الناس اللي جاية النهارده، كفاية فضايح!»..
هنا استأذنت «حنان» ووالدتها للانصراف، لم يكن هناك وقت لقول:

«مبروك»، ربما لأنه لم تكن هناك مناسبة لقولها أصلا! في الطريق إلى البوابة كانت «هالة» تجلس فوق إحدى الدرجات صامتة تماما، أما أمها فكانت واقفة أمامها، تنظر لها بغضبٍ مشوب برجاء!

وقبل أن تذهب «حنان» اتجهت نحو هالة للمرة الأولى وسألتها: «ما لك يا هالة؟!»، لتجيبها قبل أن تصعد متجهة نحو الشقة: «جيت ألعب.. ما عرفتش!»..

obeikan.com

obeikan.com

قصقصة جناحات

العودة إليه كانت بطعم البعث! كأنها فرصة، أو منحة لن تتكرر ثانية! الشارع، البيوت، الجيران.. وأكثر من ذلك !

كانت تغمرني حالة شوق فريدة إلى هذا كله ! صحيح أنني كنت على اتصال بجارتي طوال سنوات السفر؛ حيث كانت تطلعني على أخبار الشارع أولا بأول، لكن المواجهة تكشف تفاصيل أخرى تعجز الكلمات عن وصفها! عندما ضمني الشارع وبدأت أسير نحو البناية التي أقطن فيها، تنفست خليط الهواء نفسه الذي لم يتغير!

خليط من نكهات وروائح البيوت التي تسللت عبر النوافذ كي تتحرر! خليط يحمل دفئا وصبرا ووحدة ومرحا.. وترقبا أيضا!

فقط عندما أصبحت وحدي في حجرتي، عدت تلك الفتاة التي لم تتجاوز بعد الرابعة عشرة!

رحت أعاون أمّي في حملة التنظيف المتعبة تلك، لكنه بالنهاية مجرد تنظيف! لم نحاول أن نغير من وضع أي مقعد أو سرير أو مزهرية أو صورة! رغبتنا كانت واحدة ولا تزال، إننا نريد العودة إلى الماضي! كلا، ليست محض «نوستالجيا»، لكننا كنا نتضور جوعا إلى ما فات، إلى تلك الأيام التي لم نهنأ بها.. التي لم نشبع منها!

في الشارع.. ما من شيء قد تغير، إنه فقط ذلك الرحيل!

هناك من رحل بسبب الموت، وهناك من رحل بسبب السفر، وهناك من رحل بسبب الزواج.. مجرد نقصان عددي لا أكثر، إلا أن ذلك لا يعد تغييرا من الأساس! نوافذهم أمام عيني كما هي! كل ذرة في هذا المكان لا تزال محتفظة بشخصيتها.. أو هكذا ظننت! إنها نافذته! نافذة حجرته التي لم أعتَد رؤيتها مغلقة أبدا، واسمه المكتوب بالطباشير أسفلها وقد انطفأ نوره وصار باهتا! كنت أعلم أنه أصبح وحيدا بعد وفاة أمه وزواج شقيقته! في الماضي، كنت أقف أتطلع إلى نافذته أنتظر نداءاته الغامضة إلى أسراب الطيور ليبدو وهو يحلق معهم في مكانه!

ورؤية وجهه البرّاق البعيد الذي كان يغريني بالضبط كنجوم السماء! كنت أعلم أنني أبالغ في كل شيء، لكني لم أكن أبالغ في ذلك الشوق الذي كان يتملكني حينها! الشوق حتى إلى تلك السخافات التي لا تعيش إلا في خيال بعض السذَّج! الشوق إلى.. «حب المراهقة» أو «حب الشبابيك»! ذلك المصل الذي يكسبنا مناعة أقوى لنصير أكثر نضجا بعد ذلك!

أيقظني نداء أمي من هذه الأفكار؛ حيث كانت تريد مني أن أخرج لجلب بعض الأشياء التي يحتاجها المنزل.. الغريب أنني وافقتها على الفور ولم تمر دقائق حتى ارتديت ملابسي وكنت بالخارج !

أنا التي كنت أكره الخروج إذا كان بهدف شراء احتياجات البيت، لم أفكر ولم أنتظر لحظة بعدما أخبرتني بما تحتاجه! كأنني كنت أنتظر منها ذلك! كنت أسير بخطوات فتاة صغيرة، خطوات أشبه بالقفز تعلن عن خجل وتوتر شديدين! لكن.. لولا خروجي لما استطعت اكتشاف ذلك التغيّر! المتاجر، الوجوه، وحتى الشخصيات نفسها !

الشخصيات التي أحسست تجاهها بما يشبه «الانكسار»!

لم أدرك ذلك جيدا إلا عندما ذهبت لشراء دجاجة للعشاء !

هناك التقيت صديقة أمي صدفة! ابتسامتها وضمتها جعلتاني أتأكد بالفعل أني ما زلت صغيرة وأنه بإمكاني التحكم في الزمن!

كل شيء كان على ما يرام حتى أخذت كل منا طلبها! أنا أخذت دجاجتي، أما هي فتلقت محض هياكل وعظام! تظاهرت بعدم انتباهي لهذا الأمر؛ حيث كنت أتأمل ابتسامتها في تعجب !

لم أسمع منها شيئا، لم أنتبه لحديثها؛ فملامحها كانت تنطق بسعادة مجهولة المصدر على الرغم من ذلك الوهن الذي بدا في عينيها!

لم أكن أعلم أن النوافذ والبيوت قد خدعتني! ثمة تغير كان عليَّ إيجاده كي لا يعود إحساسي بالغربة وأنا في موطني هذه المرة!

قررت العودة إلى البيت عازمة على إخبار أمي بما رأيته، وفي الطريق استوقفني ذلك الغناء!

كانت العصافير تحلق من دون أجنحة بنغماتها وألوانها وهي داخل الأقفاص !

لا أذكر أنني وقفت دقيقة كاملة كي أتأمل طيور الزينة في يومٍ من الأيام! تلك الكائنات التي لا تزال محتفظة بجمالها على الرغم من فقدانها الحرية، وربما حسرتها أيضا وهي ترى طيورا أخرى تسبح في الهواء خارج الأقفاص! عزمت على جلب واحد مثلها يقطع ما في البيت من سكون!

obeikan.com

فقط عندما أصبحت بالداخل، كانت هذه اللحظة التي كنت أحاول تصديقها.. إنه هو! كان يجلس في صمت تام، ولما اقتربت أكثر أدركت أنه منهمك في قراءة كتاب.. أو هكذا كان يبدو! ففي الحقيقة لم أكن أشعر أنه يقرأ بالفعل، لم أكن أشعر أنه يتنفس حتى! هدوء ثقيل يحيط به، فبدا كجزيرة وحيدة لا يعلم أحد بوجودها أصلا!

ألقيت التحية وعندما انتبه لي سار الحديث بشكل روتيني في خلال دقائق؛ فأنا بالنهاية مجرد زبونة، إلا أني لم أكن أستقبل منه أي كلام، كنت أسمع صوته الذي راح يعلن عن حال صاحبه! لقد تغير كما توقعت، نافذته لم تخدعني كغيرها! الحقيقة تخبرني بأنه انطفأ تماما، لكنني لم أقتنع بها.. إنه لا يزال أمامي ذلك النجم الذي كنت أنتظر ظهوره!

تعمدت المكوث لفترة أطول، تعمدت ادعاء الغباء كي أستمر في تكرار الأسئلة حتى يعود ويجيبني ! لم أكن أصدق فكرة أنه «يتحدث إليَّ»! وما بين سؤال واستفسار وادعاء للحيرة، اخترت أحدها في تلقائية شديدة فبدوت كأنني لم أكن أسمع ما يقول! صحيح أنني كنت أود جلب أحد الطيور كي أشعر بوجود «الوَنَس»، لكن ظهر سبب آخر أقوى! إنني أريد اقتناء أي شيء منه، أي شيء كان له، كان معه.. علّه يكون قد اكتسب بعضا منه! لا أستطيع أن أنكر أنني كنت أشعر ببعض الضيق والإحباط؛ فطوال تلك الدقائق لم يتذكرني، لم يحاول حتى تأمل وجهي أو النظر إليَّ خلسة! كان يتحدث بآلية شديدة!

هممت بالانصراف لكنها استوقفتني لتبدل حالي تماما..

- «حمد الله ع السلامة»! قالها بنبرة مختلفة لا تَمُتّ لتلك الآلية الخانقة بأي صلة!

أخبرني أنه فقط كان يحاول أن يتأكد من أنني بالفعل جارته التي سافرت منذ عشر سنوات!

قال لي إن ملامحي لم تتغير حسبما يتذكر، على الرغم من أن عشر سنوات ليست بالأمر الهيّن! الغريب أنني لم أحاول الاستمرار في الحديث هذه المرة! كنت سعيدة إلى حد الخجل فآثرت الاستماع له ثم الاستئذان والعودة!

في الطريق كان كل شيء يتبدل في عيني!

أضواء المصابيح والمتاجر وحتى الأضواء الباهتة من خلف النوافذ.. كانت مبهجة ! حتى السماء نفسها على الرغم من غياب القمر وعجزي عن رؤية النجوم بسبب ضيق الشوارع وكثرة البنايات، لكنها كانت مضيئة ! نورها الغامض يتخلل الفجوات فيولد ذلك السحر الذي لا ينتبه له معظم البشر! كنت أشبه بشخص يسير تحت تأثير المخدر؛ فقد كنت سعيدة للغاية على الرغم من أن السبب نفسه لا يستحق هذا القدر الهائل من السعادة ! عند عودتي لم أفعل شيئا سوى البقاء في حجرتي، أفكر في ذلك اللقاء، أتأمل نافذته، ثم أصغي لغناء طيره !

لم أتحدث إلى أمي، لم أتناول حتى عشائي معها، ربما لأن جوعي لم يكن إلى طعام!

* * *

obeikan.com

استيقظت فجأة بالضبط كما غفوت فجأة وأنا أشعر بالاستعداد إلى شيء لا أعرفه! نظرت إلى الطير بعدما خطرت ببالي تلك الفكرة! فتحت نافذتي وفتحت باب القفص ثم انتظرت لحظة التحليق، لكنها لم تأتِ! رحت أهز القفص وأحدث العصفور كأنه سيفهمني: «يلا طير، مستني إيه؟!» لكن مخالبه كانت تتشبث بقضبان القفص، بينما أدار ظهره إلى الباب المفتوح وإلى الضجة وإلى الشمس وإلى الكون كله.. «مش هيطير» سمعتها فأخذت أتلفت حولي باحثة عن مصدر ذلك الصوت!

هذه المرة كنت غبية ولم أكن مدعية، لكن قد يكون السبب في غبائي هذا هو أنني كنت أعلم من هو صاحب الصوت.. نظرت بالأعلى فوجدته أمامي يقف في شرفته ممسكا بذلك الكتاب الذي كان يقرؤه بالأمس..

«مش هيطير» كررها لتصير أكثر وضوحا في أذني!

كانت عميقة، غامضة، وتحمل صبرا فريدا لا يعتاده المرء بسهولة!

- ليه مش هيطير؟!

- عشان جناحاته مقصوصة!

نظرت إلى العصفور فلم أشعر بوجود اختلاف بينهما.. عدا شيء واحد.. «هو صحيح مش بيطير، لكن لسه بيغني».. قلتها بعدما عدت لأنظر إليه بقوة! كنت أحاول الوصول إلى عينيه، أحاول لفت انتباههما، حتى شاهدت شبح ابتسامة يسري في ملامحه كلها! حسنا، يبدو أن ما شعرت به بالأمس كان جزءا ضئيلا من السعادة!

- انتي ليه ما جبتيش سمك؟! السمك بيهدي الأعصاب!

- السمك مخلوقات ميتة! أنا عايزة حاجة أحس بيها، حاجة تعمل لي دوشة وحس في البيت..

بدا كأنه يفكر في شيء ثم قال: «طيب.. عن إذنك».. وذهب !

اختفى من الشرفة وتركني وأنا أشعر بثمة شيء ناقص! حديثنا لم ينته

بعدُ؛ لأنه لم يبدأ أصلا! وقعت عيني على مشجب لا أعلم ما الذي أتى به في حجرتي! لكنها كانت فكرة ممتازة.. لأنها الفكرة الوحيدة !

قذفته بكل قوتي حتى ارتطم برقة بزجاج الشرفة! لم أنتظر طويلا لأجده أمامي مجددا ينظر لي في تساؤل وربما اندهاش أيضا! أسرعت بالقول: «أيوه أنا اللي حدفت المشبك! كنت عايزة أسألك...»،

وتوقفت! إنني أرغب في التحدث إليه ولا أعلم فيمَ! كان لا يزال واقفا وكنت أشعر بعينيه!

ربما إن ذهب مرة أخرى سأعثر على السؤال.. على أي مبتدأ للحديث معه!

- (ضاحكا) انتي لحقتي تنسي السؤال؟!

- (من دون تفكير) انت رايح المحل دلوقتي؟

- أيوه!

- مممم.. فطرت؟

- لأ!

- يبقى هعدي عليك بالفطار عشان يبقى عيش وملح..

أطلقتها وهربت! لم أعطه الفرصة لإبداء رد فعله؛ لأنني لم أعطِ لنفسي الفرصة كي أنتظر وأرى! لم أشعر بالخوف مما فعلته، لم أكن أشعر بالخوف منه، ربما لأن المرء لا يكشف عن تلقائيته إلا مع الضعفاء.. مع الكائنات الهشة التي تشبهه! سرعان ما ارتديت ملابسي وقبل أن أهم بالانصراف صاحت أمي:

- صباح الخير!

- انتي صحيتي؟! صباح النور يا ماما..

- يعني جيتي إمبارح بالليل ساكتة وما رضيتش أكلمك، قلت يمكن تعبانة وعايزة تستريح.. إيه موضوع قفص العصافير ده؟!

opeikan.com

- مالها العصافير؟!
- أصلك من ساعة ما دخلتي عليَّ بيها امبارح وأنا حاسة إن فيكي حاجة متغيرة!
نظرت إليها مليا، إلا أنني لم أكن قادرة على التفكير وقتها!
ثم صحت كأنما وجدت شيئا ضائعا:
- صحيح، أنا قابلت طنط منال إمبارح!
- بجد؟! وهي عاملة إيه؟!
- بيتهيألي يا ماما نعزمها النهارده ع الغدا وانتي تعرفي بنفسك هي عاملة إيه.. بصراحة شكلها كان تعبان!
- تعبان؟ بس مفيش هنا تليفون عشان أكلمها ولا حتى معايا نمرة الموبايل بتاعها!
- أنا هروح لحد عندها أعزمها بنفسي، وأظن إنها مش هتردني لأنك واحشاها قوي.. يلا سلام..
قبل أن أنصرف قالت:
- يعني انتي كنتي خارجة م الأول عشان تعزميها؟!
- لأ.. أنا كنت خارجة أتمشى شوية!
- دانتي عمرك ما عملتيها!
- هو انتي مش دايما تقولي مفيش حاجة بتفضل على حالها؟!
تركتها وهي تضحك، وهذه الضحكة بالذات قد رنّت في أذني مختلفة تماما عن سابقاتها؛ فلقد كانت أول ضحكة تسبح بين أركان البيت بعد عودتنا!
وأنا في طريقي إليه لم أكن أشعر بأي قلق!
لم تتسارع نبضات قلبي خوفا أو خجلا، بل كانت ثمة طمأنينة وراحة تملآن جسدي كله! عند وصولي إليه استقبلني بوجه جميل، ربما بسبب ابتسامته أو نور الشمس الذي أحيا وجهه! والحق فقد شعرت حينئذ

- في تلك اللحظة - أنني أريد الهروب به ومعه إلى إحدى العواصم التي تعترف بالحب، فأقبِّله في أكبر ميدان يعج بالمارة!

- دانتي كنتي بتتكلمي جد بقى!

- طبعا، أنا قد كلامي قوي على فكرة..

جلست أمامه.. ولأنني لم أكن قادرة على استقبال نظراته تلك، رحت أتأمل الأقفاص من حولي لتقع عيني على صندوق ممتلئ بالكتب، فسألت:

- شكلك بتقضي يومك هنا أكتر ما بتقضيه في البيت عشان كده سايب شوية كتب تسليك..

- قصدك تونسني..

- تعرف إني ابتديت أصدق إن الناس بتخاف م الكتب، مش مجرد إنهم مالهمش تُقل ع القراية وخلاص !

- المشكلة مش في إن الناس بطلت تقرا كتب، الكارثة إنهم بطلوا يشتروا ورد.. حتى لنفسهم!

- على فكرة، الناس اللي هنا شبه عصافيرك! يعني.. اتقصقص جناحاتها لكن لسه قادرين يغنوا، ع الأقل أول ما بتجيلهم الفرصة!

امبارح مثلا قابلت طنط منال صاحبة ماما وبعد ما سلمت عليها ومشيت حسيت إن فيه حاجات كتيرة قوي اتغيرت!

- عشر سنين مش شوية! انتي سافرتي وسيبتي الناس وهي عارفة تطير، ولما رجعتي لقيتيهم يا دوب بيحاولوا يغنوا!

بيتهيألي لو سافرتي كمان عشر سنين ورجعتي هتلاقيهم بقوا سمك، مش باين عليهم حاجة ويمكن مش حاسين بحاجة! عندك طنط منال مثلا في العشر سنين اللي فاتوا.. اطّلقت وشالت مسئولية ابنها لوحدها، شقيت لحد ما اتخرج م الكلية وطلع عينها عشان تلاقيله شغلانة، وفي الآخر

خدت قرض عشان تجوزه وبتسدد القرض من معاشها، وطبعا ابنها مش سائل فيها.. حاجات يعني قادرة تغير جبل بحاله مش بني آدم!

- وانت.. غيروا فيك إيه العشر سنين؟

توقف عن الأكل ونظر لي مليا في صمت بعدما خفت فيه كل شيء، حتى أحسست أنني على وشك أن أُطرد ! صحيح أن ملامحه لم تكن تحمل أي غضب، لكن صمته ونظرته الثابتة الممتدة كانا يُشعرانني بثقل هذه اللحظات وربما بالخجل وحجم الخطأ الذي اقترفته!

من أين أتيت بتلك الجرأة حتى أتحدث بها في أول لقاء؟! لم أعتذر؛ لأنني لم أكن قادرة على التفوه بكلمة، حتى سمعته يقول:

- طب إيه رأيك تقولي انتي الأول وأنا بعدين؟!

تنفست الصعداء ونظرت له في تساؤل قائلة:

- وعد؟!

- وعد..

- بابا مات! دي الحاجة الوحيدة اللي حصلتلي في العشر سنين اللي فاتوا، ما افتكرش أي حاجة تانية؛ لأن مفيش أسوأ من كده! صحيح الدنيا ما بتقفش على فراق حد.. لكن إحنا اللي بنقف! ما كانش ينفع نرجع أنا وأمي لأن المشوار كان لسه في أوله! ولأني ما بحبش أستسلم للضعف؛ فشوية بشوية لقيت نفسي استرجلت، أصل اكتشفت بنفسي ساعتها إن وجود الراجل في البيت بيحوش بلاوي وم الآخر كده مفيش ست بتسترجل بمزاجها! صحيح إحنا كنا بره مصر لكنه كان نفس المجتمع تقريبا ما اختلفش كتير! فيه ناس وقفت جنبنا بجد، وفيه ناس عملت نفسها واقفة جنبنا.. بس أنا ما سكتش، والغريب إن أمي ما كانتش خايفة عليَّ وهي شايفاني بكلم ده وبتخانق مع ده عشان أوقفه عند حده، وبتفق مع النجار عشان ييجي يخلصلنا حاجة في البيت، وبفاصل

مع الكهربائي بعدما يصلح الحاجة! واجهت الدنيا ودخلت فيها جامد فحسيت إني مسترجلة.. أو زي ما تقول مقنفدة!

- أنا بحسد الستات عشان كده.. عندهم قدرة تحمل غريبة... انتي تعرفي يعني إيه بيت من غير أم، من غير أخت.. بيت من غير ست؟!

- يعني إيه؟!

- مش هيبقى بيت.. هتبقى مغارة واللي موجودين فيها يشبهوا أهل الكهف! بعد ما أمي توفت خدت وقت لحد ما استوعب اللي حصل، ولما فقت أختي اتقدملها عريس! فجأة مالقيتش غيري أنا وأبويا في البيت! مهما كان بيحاول يداري ضعفه قدامي كان بيفشل، وعشان كده كان بيقضي معظم وقته بره البيت، ولما يرجع يرمي نفسه ع السرير وهو مش حاسس بحاجة من كتر التعب !

ساعات كمان كان بيبات بره، المهم ما يبقاش في البيت!

بيمثل إنه مشغول أو إنه مسافر سفر طويل لحد ما يرجع ويلاقيها.. بس عمره ما هيلاقيها!

- صحيح إحنا بنحزن ع الميت، لكن الميت نفسه بيزعل لما بيلاقينا زعلانين.. مش لازم نفضل زعلانين على طول!

- هو انتي السنين اللي فاتت دي ما حبيتيش؟!

ببساطة قالها! لا أدري إن كان يقصدها بالفعل أم أنه كان يهرب من حديثنا عن الموت! ربما من الأفضل ألا نتخذ أي قرار حتى إذا كان متعلقا بالهروب ونحن في قمة الألم، ربما لا بد لنا أن نصمت ونتجاهل عقولنا تماما بما تحمله من فوضى، وإلا سنبدو كالمجانين وقد لا يقودنا الهروب إلى أي شيء يمكنه مساعدتنا !

ببساطة قالها.. وربما إن لم يقُلها ببساطة لكنت أفضل حالا وقتها، لكنت تمكنت من استقبالها وتهيئة نفسي للإجابة عن سؤاله! كان من الممكن

أن أجيب عنه ببساطة أيضا.. كلمة وردّ غطاها.. «لأ»! لكنني لم أفعل!

- كان فيه اللي بيقرب، لكن ولا واحد فيهم من النوعية اللي بحبها.. القلب ده أصله عامل زي الباب، والناس ليها مطلق الحرية إنها تخبط ع الباب ده، لكن مش كل من خبط ع الباب هنفتحله!

يمكن عشان كده زهدك في الحاجات ساعات بيبقى كرامة وطموح مش أكتر!

- بس فيه ناس ممكن تفتح الباب ده بطريقتها، وناس تانية ممكن تكسره.. يبقى أحسن إننا نسيب الباب موارب!

- ساعتها لما يدخلوا هيبقى أمرهم في إيدك، ويا تقرر تديهم فرصة يقعدوا يا إما تطردهم!

وبخصوص الباب الموارب، فده بيحصل في حالة لما يكون البني آدم حاسس بالأمان، وأنا كنت في غربة حواليا وجوايا.. ما كانش ينفع إلا إني أقفل الباب، مجرد حرص مش أكتر!

بعدين فيه فرق كبير بين ناس وجودهم بيصبرك ع الدنيا، وناس تانية يحببوك فيها!

- انتي قمتي ليه؟!

- عشان عاملين عزومة النهارده وبعدين لسه البيت محتاج شوية تنضيف!

- بس انتي كده نسيتيني حاجة مهمة جدا كنت عايز أقولهالك!

- وقت ما تفتكرها اكتبها في ورقة عشان ما تنساهاش.. سلام..

ذهبت وكلانا كان يحمل الوجه نفسه، والابتسامة نفسها تقريبا!

سرت وأنا على يقين بأنني أمتلك منه شيئا لا أراه، كأن جزءا منه صار من حقي، من ممتلكاتي!

لا أدري كيف جئت بكل هذه الثقة، على الرغم من علمي أن ذلك لا

obeikan.com

يعد كونه إحساسا!
لكني أذكر جيدا أن إحساسي لم يخذلني يوما!
مرّ اليوم بسلام، واستمتعت أمي بلقاء صديقتها كما تألمت لحالها أيضا، لكنها على الأقل أدركت ما كنت أحاول أن أخبرها به، ليسيطر عليها التفكير مجددا فيما يمكن أن تقوم به تجاه صديقتها!
الآن أستطيع القول إن أمي قد عادت! أما أنا فلم يكن ينبغي عليَّ سوى العودة إلى حجرتي لتقع عيني صدفة على ذلك المشجب الملقى بجوار السرير!
اقتربت أكثر لأجد ورقة صغيرة بين طرفيه، عندما فتحتها وجدت جملة بخطٍّ أنيق تخبرني:
«أنا ما نسيتش، أنا بس اتبرجلت! كنت عايز أقولك إني كنت متعود زمان أبص عليكي م الشباك، اوعي تسافري تاني»..

obeikan.com

الحادثة

obeikan.com

انتهيت من كي ثوبي، ثم وقفت أمام المرآة واضعة إيّاه فوق جسدي! إنه ثوب سهرة بسيط للغاية، وهذا يطمئنني؛ فأنا أكره أن أكون محطا للأنظار بأي شكل وبأي طريقة! طرقة صغيرة على باب حجرتي جعلتني أنتبه، لأجدها أمي وقد أحضرت لي كوب الشاي!

وضعته فوق الطاولة المجاورة للنافذة، لكنها لم تخرج بعد ذلك، وإنما جلست فوق السرير، تنظر إلى فستاني تارة وترمقني تارة بنظرة تساؤل وسأم! سألتها: «ما لك يا ماما؟!»

فأجابت: «الأسود ده مش ناوية تغيريه أبدا؟!»..

تناولت كوب الشاي الساخن بأطراف أصابعي وحاولت الارتشاف بحذر، وعندما استطعت الحصول على أول رشفة والاستمتاع بها للحظات

أجبت:
- لأن السواريه أساسي فيه الأسود، سيبك م العك اللي بيحصل اليومين دول!
- طب عُكّي بالليل زي ما انتي عايزة، لكن لزمته إيه العك بالنهار؟!
- الأسود بيلم وبعدين مش لافت، ثم إنه لون زي بقية الألوان.. نلغيه يعني عشان الناس شايفاه كئيب؟!
ساد الصمت لدقيقة كاملة استطعت التحقق منها عن طريق ساعة يدي الرقمية التي كنت أتأملها رغما عني هربا من مواجهة نظراتها!
دقيقة واحدة.. ومع أول ثانية انطلقت من عمر الدقيقة الجديدة سألتني: «وإن شاء الله خطوبة ولا كتب كتاب؟»..
شيئان فقط يمنحانني الدفء الذي أرغب فيه.. الشمس وكوب الشاي ! لذا فقط أحطته بكفي بعدما خفت سخونته، في الحقيقة كنت أحاول أن أستعد لتلك المناقشة الثقيلة، طالت أم قصرت.. فهي ثقيلة ومملة أيضا !
إن أمي لم تسألني عن أشخاص وإنما فضلت أن تسألني عن مُسمى للمناسبة «خطوبة ولا كتب كتاب؟»
إنها فرصتها للحديث، فرصتها كي تقول كل ما ترغب في قوله؛ فالأمر يبدو أمامها منطقيا الآن!
أجبتها في هدوء: «خطوبة بسمة زميلتي في الشغل».
وانتظرت كي أسمعها، حتى خُيِّل إليَّ أنني قد انتظرت لساعات، إلى أن نهضت فجأة، حينئذ شعرت بغضبها!
فضَّلت أن أبقى ثابتة في مكاني ولا أحاول إحداث أي حركة، لكن قبل أن تغادر أوقفها شيء ما!
لقد استطاعت رؤيته وأغلب ظني أنها لم تكن تعرف ما هو.. حتى اقتربت منه وصار بين يديها!

- برضه عملتي اللي في دماغك وجبتي عود؟!

- طب ما انا قايلالك من مدة إني ناوية أجيب عود عشان عايزة أتعلم أعزف عليه!

- هتتعلمي إمتى يا بنتي؟ ده الشغل واخد كل وقتك!

- ما انا لو سبت نفسي للشغل يبقى عمري ما هعمل الحاجة اللي بحبها!

تنهيدة إحباط، أستطيع تمييزها بسهولة، أطلقتها وهي تضع العود فوق السرير! رمقته بنظرة غضبٍ مُقيّد لتتجه بعدها نحو الباب، لكن قبل أن تخرج استدارت وقالت:

- «يعني مالقيتيش غير الآلة الرجالي دي؟!»

اتسعت عيناي اندهاشا للحظة، لا لشيء إلا لتنطلق مني بعدها ضحكة ساخرة لم أقدر على ردعها أو حتى التخفيف من حدتها، قلت:

- رجالي؟! إيه اللي أوحالك بكده يا ماما؟! ولا اكمنك ما بتشوفيش غير عبد الوهاب وفريد الأطرش وعمار الشريعي؟!

- يعني أقصد إنك بنوتة، كنتي تنقي كمانجة مثلا!

- بس أنا بحب العود، إيه دخل الرجالي والحريمي في حاجة زي كده؟! ما تحسسينيش يا ماما إننا في محل ملابس !

كل ما لم تستطع قوله أرسلته لي في صفقة الباب! إنها أمي.. تلك المخلوقة الوديعة الهادئة، وذلك قبل حوالي خمس سنوات!

لا أذكر بالضبط نقطة التحول التي جعلتها تتبدل معي إلى هذه الدرجة، لكن التغيير جاء بشكلٍ تدريجي ومتراكم!

صارت أكثر قلقا وخوفا! كلما سمعت عن نبأ زواج إحداهن ازدادت إحباطا وربما وجدتها تبكي وحيدة في غرفتها !

كل «عريس» في نظرها هو الأفضل على الإطلاق!

وبمرور السنوات وحتى الآن استضاف منزلنا المتواضع العشرات من

obeikan.com

«طالبي القُرب»، فنحن ثلاث فتيات، وأنا أصغرهن، ولأنه لم يتبقَّ غيري ولأنني على مشارف الثلاثين فقد صرت مصدر قلقها الدائم!

وبناء على ذلك أصحبت مهمتها الأولى والرئيسية على الإطلاق هي البحث عن أي عريس ممكن لابنتها الصغرى التي وصلت لمرحلة «التعفن» على ما يبدو!

لكن بمرور «العرسان» شعرت أن العيب لا يكمن فيهم وإنما في ابنتها؛ لذا فكان عليها أن تعدل من طريقتها لتصبح مهمتها هي محاولة إقناعي بالمبدأ أولا كي أتخلى عن تلك الكلمة التي تثير غضب كل الأجيال السابقة تقريبا.. «لأ»! هي عصبية المزاج، لا شك في ذلك، إلا أنني أذكر آخر ما أخبرتني به في هدوء غريب عندما قالت: إن الحياة دون رجل ليست مرعبة أو مؤلمة إلى حد لا يمكن تحمله، لكنكِ ستكتشفين سخفها وميوعتها بمرور الأيام! أمي لا تعلم أنني لست قادرة إلا على تحمل مسئولية نتائج كلمة «لأ»، كما لا يمكنها تجاهل كلمة «عانس» على الرغم مما تحمله من ظلم! فـ«عانس» كلمة تطلق على الفتاة فقط من قِبل أناس يعشقون تعذيب حالهم!

الزواج في نظرهم هو ذلك الـ«إيفينت»، مجرد حدث للغناء والرقص! يشبه إلى حدٍّ كبير «المولد»، ما إن «ينفض» فلن يبق سوى اثنين، عليهما - هما فقط - مواجهة حياة لن تكون سهلة كما كانت في عيونهما قبل الزواج!

* * *

لم أستهلك وقتا طويلا من أجل الاستعداد؛ فكل المناسبات في نظري صارت تشبه بعضها بعضا! لم يعد يهمني كثيرا آراء الناس أو نظراتهم المشفقة دائما، ربما لأنني أيقنت أن العيب لا يكمن فيَّ وإنما فيهم!

خرجت من حجرتي فاصطدمت به وقد جلس على الكرسي ممسكا بـ«الريموت كنترول»، وكما تعوَّدت أن أراه دوما، لا يعلم ما الذي يرغب في مشاهدته، وكأن غايته فقط هي الجلوس أمام التليفزيون والإمساك بجهاز التحكم! هذه المرة لم تكن جلسته مجرد حيرة فيما يرغب في مشاهدته وإنما كانت انتظارا! فما إن رآني حتى ترك ما في يده واعتدل في جلسته كأنه على وشك الهجوم ثم راح يتأملني في دهشة وقال:

- انتي رايحة فين؟!

- ما انت عارف يا بابا! رايحة خطوبة واحدة زميلتي!

- خطوبة؟! يعني مناسبة تفرح! أمّال إيه الكروتة دي؟ دي لفة طرحة بذمتك؟! فين الأحمر والأخضر؟ ولا انتي مش زي بقية البنات؟!

- بابا، أنا رايحة أجامل وبس!

صمت للحظات بدا فيها يستعد لسؤاله الرئيسي الذي يؤلمه للغاية، والذي اعتاد أن يسأله في مثل هذه المناسبات:

- زميلتك دي عندها كام سنة؟!

- أصغر مني بتلات سنين.. أي أسئلة تانية؟!

لم يرد، وإنما تناول «الريموت» وراح يكمل ما بدأه!

أبي لم يمتص من أمي سوى القلق والخوف نفسيهما! لن يعتبر حاله أبا ناجحا ومثاليا إلا برؤيتي في «بيت الزوجية»! الغريب أنه استطاع تغيير مبدئه بسرعة مثيرة للدهشة! فقبل خمس سنوات كان يحذرني من التعامل مع الرجال حتى وأنا في عملي! أذكر أنني عندما كنت في المرحلة الابتدائية وعندما تم وضعي في صف مشترك، لم يمر أسبوع حتى استطاع

تحويلي إلى صف آخر للبنات فقط!

لم أفهم وجهة نظره حينها، لكني حمدت الله أنني لم أنجح في تكوين صداقات أو التعلق بالأجواء خلال تلك الأيام القليلة! لم أكن أعلم أنه مبدأ ثابت تم ترسيخه في عقلي حتى صرت مبرمجة! بمرور السنوات كنت أنفذ ما يريده من دون الحاجة لتذكيري به!

فقط ذات يوم سألته عن السبب، فأجابني باقتضاب:

- عشان عيب، ما يصحش بنت تكلم ولد ما تعرفهوش..

- ما هو كده يا بابا عمر ما فيه بنت هتكلم ولد أبدا!

- لو اتكلمت معاه الكلام هيجر كلام، وهتبقى معرفة وصحوبية.. ومفيش بنت متربية تعرف ولاد أو تصاحبهم، يبقى من الأول ما تتكلمش معاهم..

فكرة كلما تذكرتها بيني وبين حالي لا أستطيع منع نفسي من الضحك! حقا، لم أكن أعلم ما هو المخيف في الرجال كي أتجنبهم إلى هذا الحد! تساؤلات لم تنتهِ حتى مررت بذلك الحادث، فآمنت أن أبي كان يعلم ما في المستقبل، أو أنه يعرف «تركيبة الرجال»؛ لأنه في النهاية منهم!

حسنا، وقتها كنت أبالغ في رد فعلي تجاه ما تعرضت له، لكن الأثر باق وإن خفُت! إنني لا أشعر بوجود ما ينقصني، لكن ذلك الحصار الذي يتقنه والداي وجميع أقربائي تقريبا يأبى أن يتركني راضية!

أبي غير مقتنع أنه قد أتم رسالته بالفعل وأن الله سيكافئه بالجنة التي يحلم بها؛ لأنه استطاع تربية وتعليم وتشغيل بناته الثلاث.. صحيح أنه استطاع تزويج اثنتين فقط، لكن الزواج ليس شيئا أساسيا في حياتي!

* * *

ها هي بسمة تجلس بجوار زوج المستقبل.. عندما أتأمل وجهها أشعر بأنني أمام شخصية أخرى لا أعرفها ! يمتزج الخجل والضعف بملامحها! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يعلن عن ضعفه بمثل هذه السهولة! هل هذا أمر ممتع إلى ذلك الحد؟!

إن الفتيات يتذكرن أنهن ضعيفات فقط عند ارتباطهن، وبعدُ يفضلن الاختفاء بعد استبدالهن القادم الجديد بكل ما في عالمهن!

أمر غريب لا أقدر حتى على أن أستسيغه! أذكر أنني صارحت بسمة بما أفكر فيه، وذلك بعد أن أعلنت نبأ خطبتها، لتجيبني بعد فاصل قصير من الضحك: «انتي بتكلميني عن بنات مالهاش دنيا قبل الارتباط..

يابنتي الحياة دي شركة كبيرة، كل موظف فيها بيحتاج بقية الموظفين كلهم مش واحد بس! كل واحد ليه دوره في حياتك، فما ينفعش تبدلي الأدوار لأنك مش انتي اللي وزعتيها! يمكن البني آدم اللي بتحبيه بتلاقيه مختصر الدنيا كلها فيه، لكن أكيد مش هيقدر يعوضك عن كل حاجة فيها، هو مش بسبع أرواح يعني!».

الغريب أن بسمة لم نكن نراها إلا وهي تتشاجر مع حسام، وذلك طوال ثلاث سنوات قبل أن يعلن لها عن رغبته في الارتباط بها !

شد وجذب وشد وجذب، كلام لا ينتهي، أصوات ترتفع حينا ثم لا تلبث أن تهدأ حتى تتحول إلى صيحات.. ذلك كله كنا نشاهده جميعا في أثناء العمل! وكان واجبنا يكمن في فض هذه الاشتباكات وأحيانا كانت تنتهي جلسات الصُلح بأن يتعهد كل منهما بعدم التعرض للآخر بأي رأي أو وجهة نظر أو حتى كلمة ترحيب! ولا تمر أيام حتى نجدهما قد عادا مجددا إلى نزاع جديد، إلا أنه بحكم العادة صارت هذه النزاعات أكثر هدوءا فيما بينهما !

يبدو أنهما تعلما فن الشجار وكل منهما اعتاد عليه مع الآخر، لكن لم يخطر في بال أحد منا أن الأمر سيصل إلى مشروع زواج!

في الثامنة والنصف مساءً استأذنت منها ودعوت لها، وفي لحظات كنت في طريقي للعودة إلى البيت! على الرغم من أنني أستمتع بالليل فإنني أخشى السير في ذلك الوقت؛ فالحيوانات الليلية بالطبع هي الأكثر خطورة.. هكذا علمت من أحد برامج الحياة البرية!

صحيح أنني لا أعيش في غابة، لكن هناك بعضا من البشر قد اكتسبوا صفات من تلك المخلوقات الأولى..

«الحيوانات»! أكاد أحس بخطوات أحدها تلاحقني بالضبط كما حدث منذ سنوات، عندما كنت في طريقي إلى المدرسة!

بدا الشارع طويلا خاليا إلا مني، والضباب أقرب إليَّ من يدي، إلا أنني لم أشعر بالخوف؛ فبوادر الشتاء كانت تفرحني!

أذكر أن الزي المدرسي لم يشفع لي عندما اقترب مني وأوقفني عن السير! لم أقدر على رفع رأسي كي أرى وجهه أو نظراته!

فقط كانت يده التي امتدت لـ«سوستة بنطاله»، ليريني بعدها ما يملكه.. أدق وأغلى ما يملكه!

أما يده الأخرى فكانت تمتد نحو جسدي حتى خُيِّل إليَّ أنها استطاعت التسلل إلى صدري والعبث به! ركضت كمن دبّ في جسده الروح فجأة! ركضت ولم أقدر حتى على الصراخ! ركضت ولم يعد باستطاعتي النظر إلى الرجال، كي لا أفكر، وكي لا أتذكر.. وكي لا أشعر بالغثيان!

أكره الكذب والمبالغة، لكن منذ ذلك اليوم وقد بتّ أخشى السير في الشوارع!

حاولت كثيرا وعن عمد ألا أبدو أنيقة، فضَّلت ارتداء الأسود في معظم ثيابي، لم أضع الزينة إلا وأنا في حجرتي!

استهلكت كل ألاعيب الاختفاء، وعلى الرغم من ذلك لم أسلم من ألسنتهم وعيونهم في أثناء مغامرة السير في الشوارع !
كأنهم مثله وكل ما ينقصهم هو أن يسيروا «أنصاف عرايا»! أدركت حينئذ أن الانتهاك درجات! وأنه لا مانع لدى الرجل من أن يتزوج امرأة ربع منتهكة أو نصف منتهكة! لا ضير من اللمس إذًا ما دام سيصبح الرجل الأول والوحيد الذي سينالها أخيرا، وأن ما من رجل قبله قد استعمل جسدها بشكلٍ كامل.. لا أعلم كيف، لكني أشعر أحيانا بأنه ما زال يخترقني، ما زالت يده تتحسس صدري.. أبدا لم تتوقف! ولقد أوقفني مرة ثانية! توقفت خطواتي واستجمعت شجاعتي حتى أنظر في وجهه! كان يوسف.. زميلي في العمل، ذلك المخلوق الذي لا يتوقف أبدا عن الكلام، وعلى الرغم من ذلك لم نشعر للحظة أنه شخص مزعج!
- من ساعة ما نزلتي من بيت بسمة وأنا عمّال أناديكي.. يا مروة، يا آنسة مروة! إيه؟ كل ده مش سامعاني؟!
- ما باخدش بالي من أي حاجة وأنا ماشية.. خير؟ فيه حاجة؟!
- هوصلك!
- بس أنا مش عيلة صغيرة!
- وده أدعى إني أوصلك..
- يوسف، انت عايز إيه؟!
- انتي عارفة أنا عايز إيه من ساعة ما بقيت في مكتب واحد معاكي..
حسنا.. أعترف أنني في نظر الجميع هاربة من فكرة الزواج، أعدو ولا أستطيع التوقف كأنها تلحق بي، في انتظار الفرصة للنيل مني!!
لكن الحقيقة أبسط من ذلك بكثير؛ فحتى الآن لا أجد داعيا للزواج أصلا، ربما لأنني اعتدت على حياتي القائمة بالفعل بذاتيتها ومنغصاتها، أو ربما لأنني لم أعثر بعدُ على من يمكنه إقناعي.. أو بالأحرى تنويمي.. لكن ثمة

شيئا جعله يتلاشى أمام عيني في لحظات، فقد كان أحدهم يقترب منها! يده تمتد نحوها، تحاول حينا، وتنجح حينا في الوصول إلى ظهرها لتسير فوقه كما يحلو لصاحبها! أما هي فكانت مثلي تماما.. خائفة.. غاضبة.. إلى حد العجز؛ لذا لم يعد بإمكانها سوى الركض أيضا! أما أنا فقد فعلت مثلها.. ركضت مجددا، لكن هذه المرة بطريقة عكسية، لقد كنت أركض نحو ما كنت أخشاه! اتجهت نحوه ونفذت قراري الذي لم أنتبه له يوما! كيف أمكنني إخفاء شيء كهذا طوال ذلك الوقت؟!

لقد كنت أبرحه ضربا! لحظات غبت فيها عن الوعي، أو إنه ذلك النوع من الوعي الذي أخرسني طوال هذه السنوات! لم أكن أرى سواي وسواه وكلما شعرت بأيديهم تحاول إبعادي عنه، ازددت قوة واستأنفت هجومي!

بعد مرور فترة لا أعلم مدتها، بدأت في رؤية العالم مجددا! كل شيء قد اختلف، حتى أنا، بدليل أنني هذه المرة كنت أقف بثبات، أما هو فقد كان يركض ذعرا! كنت متعبة، لكنني كنت سعيدة! لم أهتم لنظراتهم الدهِشة وكلماتهم السخيفة، كانوا ينفضّون من حولي كأنهم يهربون من مجنون! ولم يعد سوى أنا وهي! كانت تتلعثم في الحديث ولم أفهم منها شيئا، إلا أني كنت قادرة على ترجمة نظراتها الممتنة! انصرفت وأنا أحس بالأرض التي أمشي فوقها.. ثناياها، استقامتها، كأنني كنت فاقدة لشيء اسمه متعة السير! أحيانا يكون التفكير نوعا من الحذر، لكننا قد نحتاج إلى التخلي عنه كي نتحرر، عندئذ سنفعل ما كان يجب أن نفعله وكنا نخشى فعله! وأنا لم أكن أدري أنه بقي شيء عليَّ أن أفعله إلا عندما رأيته قادما باتجاهي ولم يعد يفصلني عنه سوى خطوة أو اثنتين! سألته في دهشة:

- انت بتنهج كده ليه يا يوسف؟!

- كنت بجري ورا ابن الكلب ده، ما كانش ينفع يتساب كده، كان لازم يتعمله محضر..

- عموما، لو كان راح القسم ما كانش حد هيعمل معاه اللي أنا عملته!

(ثم صمتُّ لأقول بعدها كأنني أحدث نفسي) ساعات بيتهيألي إن الأشكال اللي زي دي مش هتبطل اللي بتعمله غير لما يصحوا الصُبح يلاقوا نفسهم بقوا ستات ويبقوا يشوفوا هيواجهوا الدنيا هنا ازاي! ولا هيعرفوا يمشوا في الشارع ازاي أصلا!

- (ضاحكا) زي الآنسة حنفي يعني!

هل كان عليَّ تذكر ذلك الحادث البسيط الذي تعرضت له بالأمس؟!

حينما توجهت إلى أحد محلات الأحذية بعدما وجدت ضالتي! كان حذاءً مناسبا تماما لثيابي الجديدة التي ابتعتها، بلونه الأرجواني و«فيونكته» الصغيرة التي تزين جانبه.. لكن قبل أن أقرر شراءه قال لي الرجل: «والله مش عارف يا آنسة إن كنت هلاقي الفردة التانية بتاعته ولا لأ، استنى حضرتك خمس دقايق أشوفهالك»، واختفى ربما لنصف ساعة ثم عاد ليؤكد لي أنه لم يجد «الفردة» الضائعة!

شكرته وأنا أشعر بخيبة أمل، وسرت في الطريق أتأفف كطفل لم يعثر على أبسط ما يفرحه، وعند اقترابي من المنزل سمعت أحدهم ينادي:

«يا آنسة، يا آنسة.. لقينا الفردة التانية»!

عندما عدت مع الصبي، استقبلني الرجل ضاحكا وقال:

- الجزمة كانت قدامهم لكن ما كانوش شايفينها، وصِعب عليَّ تمشي وانتي متضايقة كده يا بنتي، بس طالما الحاجة من نصيبك يبقى هي اللي هتجري وراكي، مبروك.

مممممم، حسنا.. بلغة أخرى، نحن نعتقد أن الحياة ليست عادلة بما يكفي؛ فما نرغب فيه حقا لا يأتينا إلا متأخرا بعد الزهد، أو بالأحرى بعد اليأس، لكنني لا أجد ذلك ظلما في الحقيقة! الحياة تعطينا وقتا طويلا كي ننضج، كي نستخدم عقولنا وقلوبنا معا حتى لا تتحكم فينا الأشياء التي ستُمنح لنا فيما بعد!

- (محاولةً إخفاء ضحكتي) يوسف.. انت عايز تتقدملي ليه؟!

- من غير ضرب.. وافهميها زي ما تفهميها.. انتي جميلة جدا!

- لكن بعد كده ممكن ما ابقاش جميلة أصلا!

- تقصدي بعد الجواز يعني؟ لا ما تقلقيش م الناحية دي، أنا إمكانياتي المادية ما تسمحش غير بجوازة واحدة بس..

ضحكت.. سرت لخطوات أكمل طريقي، ولما لم أجده توقفت واستدرت قائلة: «إيه؟ مش هتوصلني؟!»..

obeikan.com

فى بلد البنات

الهلوسة في قاموسي هي أن تتداخل أصوات العالم من حولي بما أراه في أحلامي؛ لذا كان لا بد لي أن أستيقظ بسرعة قبل أن أصير جزءا من تلك اللوحة السيريالية التي لا أفهمها!

كانت المرة الأولى التي أمتطي فيها حصانا!

المفترض أن أشعر بالسعادة لأنني كنت أرغب في فعل ذلك على أرض الواقع، لكنه لم يكن يركض.. لم يكن يحلق!

الطرق التي يسير فيها كانت وعرة، ضيقة، غارقة في الوحل، مزدحمة بالبشر، فمن أين تأتيني المتعة إذًا؟! على الرغم من كل شيء كانت إرادتي

obeikan.com

- التي لم تنمُ بعدُ - ترفض أن أستيقظ!
انتظرت طويلا ولم يتغير شيء !
الطريق كما هو يزداد صعوبة كأنه يحرضني على الصراخ والجنون!
الجواد لا يزال محتفظا بخوفه! يسير بحذر كأنه واقف، لولا إحساسي بعضلات قوائمه لأيقنت أنه ميت! حسنا، كل ما هو غير مفهوم ليس بالضرورة أن يكون مخيفا، لكن ثمة شيئا واحدا أقحم نفسه كالعادة !
لم يكفِه الواقع فطاردني في أحلامي..
«أنا قلت كلمة، البت دي رجلها مش هتعتب بره باب البيت تاني»!
صار الحلم يأخذ شكلا مختلفا عقب هذا المؤثر الصوتي؛ ففي طرفة عين وجدت كل من حولي يصرخ فيَّ! أناس لا أعرفهم وربما لن أعرفهم أبدا يحملون الصوت نفسه! أمر مخيف، ربما لأنه أتى بلا مقدمات.. «البت دي لو الفلوس جريت في إيديها ما حدش هيعرف يكلمها»..
لقد بدأوا يقتربون مني أكثر؛ لذا كان عليَّ أن أستيقظ بأي طريقة كي لا أجد نفسي تحت أقدامهم! فتحت عيني فجأة، وبعد معاناة محاولة التغلب على بقايا نوم أرادت إحكام قبضتها!
استيقظت قبل موعدي بربع ساعة، فتناولت المنبه وأنزلت زر التشغيل كي أطفئه! لم يكن أمرا غريبا أن أسمع صوته فقط دون حتى أي همسات تعلن عن وجود رد فعل!
الغريب هو أنني سمعت صوت مفتاح باب حجرتي وهو يمرح في ثقبه كمن يخرج لي لسانه! هنا أدركت أن ثمة تطورا في الأداء، فاندفعت نحو الباب بتلقائية أحاول فتحه، لكن دون جدوى!
- انت إيه اللي عملته ده؟!
- أعمل اللي أنا عايزه، بنتي وبربيها..
أسئلة قررت أن أحتفظ بها لحالي حتى لا أكون مصدر سخرية ولأنني

أعلم أن ما من أحد سيأتيني بإجابة مرضية: «لِمَ لا يعالَج الرجال نفسيا قبل الحب والزواج والأبوة؟! لِمَ عليَّ أن أتذكر دوما (حدوتة الدب الذي قتل صاحبه) عندما أنظر إلى أبي؟!»..

حسنا، الطريقة التقليدية لن تؤتي ثمارها هذه المرة؛ لذا فحاولت الاحتفاظ بهدوئي وأن تبدو في صوتي نبرة اللامبالاة!

فقلت وقد وجَّهت حديثي إلى أبي وأمي معا:

- طب ممكن تسيبوني أدخل الحمّام وبعدين تعملوا اللي انتوا عايزينه؟!

- (بلهجة المتحفز بعد انتظار طويل) سمعتيني وأنا بكلم أمك؟ مفيش خروج تاني بره البيت، أنا قلت مش هتشتغلي يعني مش هتشتغلي..

- ومين قال إني بشتغل بس؟ دي كورسات!

- النبي إيه! طب مفيش كورسات..

- اللي أنا بروحه ده آخر كورس وهيخلص كمان شهرين، ولو ما رحتش الفلوس اللي خدتها منك زائد المصروف هيضيعوا عليَّ..

أصحاب الصوت العالي يتعرضون للصدمات بسهولة، ربما لأن صوتهم يشوش على صوت عقولهم! لم يكن في صالحه أن يفتح الباب ويواجهني بنظراته المختنقة، لكنه كان عليه أن يفعل شيئا يُظهر به ما يملكه من سُلطة، ولأنه لم يكن أمامه سواي فقد اعتصر ذراعي بكفه قائلا في حنق وهو يخرجني من الحجرة: «طب أما نشوف آخرتها في الشهرين دول!»..

أبي يعلم تماما أن كل شيء في البيت يسير على ما يرام، لكن بسبب طبيعة عمله وكثرة أسفاره فإنه يشتاق إلى دور الأب، رجل البيت، صاحب الكلمة العليا، المنفرد دائما بقراراته! من منطلق أنه الأكثر خبرة في هذه الحياة؛ لذا فكل ما يفعله يندرج تحت بند «الخوف علينا وعلى مصالحنا»، بالإضافة إلى شيء مهم جدا، يكاد يكون السبب الحقيقي

الذي يفسر طريقة تعامله معنا.. إنه لذة امتلاك البشر ومتعة التحكم فيهم وفي مصائرهم بحكم كونه «ولي الأمر»؛ فالآباء يعتقدون أنهم أتوا بنا إلى الجنة؛ لذا فلهم الحق في فعل ما يشاءون! عندما أتذكر ذلك التفسير أحاول إقناع حالي بأنني أبالغ، وما إن أقتنع حتى تتطاير كلماته لتصل إلى أذني وهو يقول: «أنا هنا اللي بصرف ع البيت وعليكم، يبقى أنا اللي أقول إيه الصح وإيه الغلط»!

إنني ببساطة أكره البيت لا فكرة المكوث فيه فقط!

أكره الجدران، السقف، الأركان، الحجرات، الأرضية الناعمة.. كل شيء فيه ومنه! اعتقدت أن ذلك يرجع لكثرة المشاحنات بيننا، لكنني كنت أتأكد من هذه الكراهية عندما يغادر الجميع المنزل وأبقى وحدي!

الأماكن قد لا تليق بالبشر فقط، إنما قد تعرب عن كراهيتها لهم أيضا! عندما تزداد كوابيسك وأحلامك غير المفهومة، عندما تقضي أياما تظل فيها تأكل بمفردك حتى في أيام العطلة، عندما يمر شهر دون أن تسمع صوت ضحكة انطلقت من القلب ولو عن غير قصد.. اعلم أنه ليس بالضرورة أن تكون أنت المخطئ؛ فالمكان يكرهك بالفعل !

توضأت استعداداً للصلاة ، ذلك الفعل الذي يساعدني على الهروب مما أعيشه ، و ليس ذلك فقط .. إنني أحاول استحضاره كأنه معي !

أتأمل شعره الأبيض وأسمعه يردد آخر ما قاله لي بالأمس: «كل ما الواحد يحس بالضعف أكتر هيلاقي نفسه بقى قريب من ربنا أكتر، ولما يبقى قريب منه ساعتها هيحس إنه قوي، لكن عشان البني آدم بيتغر بسرعة فبيفتكر إنه ما بقاش محتاج حاجة، يقوم يبعد، ولما يبعد يرجع يحس بالضعف من تاني فيقرب منه تاني.. هي دايرة مش هتخلص، لكن كويس إنها موجودة»!

obeikan.com

كنت أسمع عن مصطلح «ذاكرة الجسد»، إلا أنني لم أستهلك وقتا طويلا كي أفهمه بمعناه الحرفي، كما يكتب وكما ينطق!

أضم يدي وأنا واقفة أتمتم الفاتحة فأجدها ترتعش راغبة في الانهيار! ذراعي، ساعدي وكفّي.. هذا الهيكل البسيط يرفض أي انقباض؛ فهو غير قادر على أن يتمالك نفسه! آثار قبضته لا تزال موجودة ولن تتلاشى بسهولة! أنحني لأركع فيذكرني ما أشعر به من طعن في ظهري بآخر مواجهة لي معه! كان ذلك منذ أسبوع عندما عدت للبيت وقد تأخرت ساعة واحدة عن ميعاد رجوعي.. «انتي كنتي فين؟! أبوكي قالب الدنيا فوق».. هكذا استقبلتني خالتي وأنا على الدرج!

الهزات الأرضية تأتي دون مقدمات، وأحيانا قد تأتي لمجرد تأكيد وجودها في هذا العالم كي لا ننسى وحتى لا نستخف بها يوما! عند دخول حجرتي أدركت أن ثمة زلزالا قويا أتى على كل ما فيها! كانت ثيابي مبعثرة خارج الدولاب، كتب الجامعة تناثرت أوراقها في كل ركن، أما المكتب الخشبي الصغير فقد خلا وأدراجه من كل شيء تقريبا!

- انتي إيه اللي أخَّرك يا بت؟

- المترو وقف كتير، وبعدين مالها أوضتي وكتبي وحاجاتي؟!

- دي قرصة ودن عشان تبقي تتأخري تاني..

- والله كان غصب عني! لو كان معايا موبايل كنتوا قدرتوا تطمنوا عليَّ!

- وانتي كنتي عايزة الموبايل في إيه إن شاء الله؟! كنتي هتكلمي مين؟!

- مش أنا اللي كنت هعوزه، انت اللي كنت هتعوزه في وقت زي ده!

- وأنا بقى مش هعوز الموبايل لأنك مانتش خارجة برة البيت تاني..

- يعني إيه مفيش خروج؟ هو كل شوية الموال ده؟! أنا واحدة عندها ٢١ سنة، يعني بقيت مسئولة عن نفسي، بقيت حرة!

عندما أراجع أمر تلك الجملة جيدا، أدرك حجم الخطأ الذي اقترفته في

حق نفسي! أولا: قلتها بنبرة حادة يغلب عليها الطابع التحذيري، ولم أكن أقصد ذلك، فلقد كنت على وشك البكاء الذي مللت من ممارسته فجاء رد فعلي بشكلٍ عكسي!

ثانيا: لهجة الاستنكار والرفض التي جاءت في سؤال «يعني إيه مفيش خروج؟!»، العيب لا يكمن بالطبع في السؤال وإنما في اللهجة، لكنني أذكر جيدا أن لهجة الرجاء لم تكن مجدية أيضا معه في يومٍ من الأيام، كما أنني لم أكن قادرة على التفكير بسبب ما كنت أواجهه وبسبب إرهاق يوم طويل!

ثالثا: «٢١ سنة»، «حرة».. نقطة لا تحتاج إلى تفسير!

فالرجل (زوجا، أبا، عاشقا) يكره سماع هذه الكلمات؛ فهي تذكره ويتأكد بذلك أنه لا يملك فتاته (زوجة، ابنة، عاشقة) امتلاكا كاملا، وأنها في أي لحظة قد تغدر به وتصدع لصوت إرادتها لا لصوته! حتى إن لم تفعل أمرا مخجلا في الحقيقة، فإنه سوف يراه كذلك بالفعل؛ لأنه لم يكن على هواه منذ البداية! لم أتمكن من رؤية وجهه عقب ما قلته، فقط أقدامه وأقدام أمي التي كانت تحاول إبعاده عني ليكف عن ضربي! علمت بعد دقائق أن عصا «المِكنسة» الخشبية قد تحطمت فوق ظهري أثناء تلك «المعمعة»! ربما عقب انتهاء «وصلة الضرب» تلك استطعت إدراك حقيقة ما في نفسي وفي كل فتاة أو سيدة أصادفها: «النساء قويات بما يكفي لتحمل آلام نفسية وجسدية أيضا! قد يكنّ أقوى من الرجال في بعض الأحيان، إلا أنه في داخلهن يرفضن ذلك! إنهن يستمتعن أكثر بممارسة الضعف عن اقتناع كامل لا خداع فيه»!

قبل أن أخرج اعترض طريقي! وجدته واقفا أمامي على بُعد خطوات يفحصني كأن بي شيئا غريبا!

- انتي لبسك ضاق ولا انتي اللي مضيقاه؟!

- لا ده ولا ده!

- أمال إيه ده؟!

قالها بانزعاج وهو يشير إلى صدري! شعرت بالارتباك للحظة جعلتني أرفع يدي تلقائيا متظاهرة بأنني أعدل حجابي، ثم قلت في محاولة مني للإجابة عن سؤاله وكسر هذا الصمت المقلق:

- هما كده والله! يعني أعمل فيهم إيه طيب؟! لبسي زي كل يوم، بلوزة طويلة وجيبة وإيشارب!

- (باقتضاب) ابقي امشي بالراحة من غير جري ولا تنطيط!

* * *

اصطدمت بالشمس وبأصوات الشارع.. وبنافذته البعيدة!

اليوم حفل خطبته والضجة ستبدأ بمجرد استيقاظ مَن في المنزل للاستعداد! لهذا السبب أخبرت أمي أنني اليوم سأكون مشغولة ولن يكون «إجازة» كما هو معتاد! المفاجآت أمر لا بد منه، حتى إن كانت إحدى هذه المفاجآت مميتة! فحدوثها لك يذكرك بأنك لا تزال حيا، على الرغم من كل شيء، أو أنك كنت حيا من قبلُ دون أن تدري!

وأنا لم أكن أتوقع أنه سيرتبط بأخرى بهذه السرعة!

إنه الرجل الذي اكتشفت أنني لم أكن أحبه بالدرجة الكافية.. وهو أيضا! سمحت له بالاقتراب مني دون سبب واضح.. ربما كان ذلك مقابل تفهّمه لما أعيشه! فبعض الرجال يجدون الغموض أمرا مثيرا لمد فترة العلاقة؛ لذلك فإنهم يهربون ما إن يصطدموا بفتاة واضحة، ولا يدركون حجم العناء الذي تتعرض له ما إن حاولت التعبير عن ذلك العشق بموعدٍ أو مكالمة هاتف، وذلك النزاع الداخلي بين ما تشعر به وما تربّت عليه من مفاهيم الشرف الضيقة !

أستطيع القول إنه كان مختلفا، وهذا ما أشعرني بالأمان!

أجل، اقتربت منه.. قد يكون نوعا من التمرد على ما أعيشه وما يريد أبي أن أعيشه، وقد تكون رغبتي في إدراك أن أحدهم يحبني فقط حتى تكتمل ثقتي بحالي، وقد يكون ذلك مجرد أمل على أن يكون هو الشخص المنتظر! لكنني لم ألتفت إلى لحظاتٍ كانت تُسرق من عمري بنعومة، وحقيقة تتراءى لي ولست قادرة على التأكد من صحتها.. فلقد اكتشفت أنني كنت محض تجربة.. الباحثون يتركون طوقا في عنق الحيوان بعد انتهائهم من إجراء تجاربهم عليه؛ وذلك بسبب التشابه الشديد بين حيوانات الغابة ! لا أبالغ عندما أشعر أنني صرت أحد حيواناته حتى بعد انتهاء كل شيء! فثمّة طوق في عنقي عليَّ التخلص منه، شرط أن تتم هذه العملية بذكاء شديد.. حتى لا أذبح نفسي بيدي!

وضعت السماعات في أذني.. أشاهد الناس لكنني لا أراهم!

ربما لأنني اعتدت الوجوه والتحركات نفسها كل صباح، وقد يكون ذلك بسبب الموسيقى التي تنشر الخدر في جسدي فأسير كالنائمة!

«يمكن لو فيه بيني وبينك حكي كنا حكينا، يمكن لو فيه بيني وبينك دمع كنا بكينا، لو كان فيه طريق تودي شوية شوية كنا مشينا، أو كان في شي درب يوصل كنا لقينا».. رشا رزق تبكيني بلا دموع !

أمارس، تحت تأثير همسها، حزن زهور البنفسج، ذلك الحزن الأنيق الذي لا يقدر أحد على صده! على الرغم من خليط الأصوات من حولي فإنني ما زلت قادرة على سماعها وما زالت هي قادرة على الهروب بي من هذا العالم! أشاهد الناس لكنني لا أراهم، ولا يسعني سوى التفكير في الأشجار! أظن أنه في يوم ما على هذه الأرض كانت الأشجار أكثر من البشر أنفسهم.. إلى أن بدأت المذبحة! ربما غار البشر من قامة الأشجار العالية ظنا أنها تلامس السماء، ولم يدركوا حقيقتها!

ظلت الأشجار محتفظة بكونها مخلوقات صامتة حتى وهي تتألم! فهي في بلادنا تُقطع وتُجتث، وفي الغابات تُنهش من قِبل الوحوش وهي تسمن مخالبها! ربما بعد هذا كله يصبح أمرا طبيعيا أن تختار الأشجار الموت وقوفا!

صارت المسافة بيني وبين محطة المترو نصف ساعة.. أحتاج أحيانا - وبشدة - إلى قدرٍ ضئيل من التمرد، تمرد يصيبني بالنسيان لأسير بعدها في الطرقات لا أعلم أين وجهتي! فأنا أبدو كمن ينتظر أحدهم حتى يشاركه أبسط ما في عالمه، إلا أنه ليس هناك أحد؛ لذا فما جدوى الانتظار؟

ساد الظلام الخارجي وارتفع هدير محركات القطار وهو ينهب خط سيره! اتكأت بكتفي على الباب، أنظر في الظلام ولا أرغب في العودة لسماع أغنياتي! فكرة وجودي تحت الأرض تخيفني، تُشعرني بالاختناق، فكيف إذًا سيكون حالي عندما أُدفن في مستقرّي؟! فكرة صوتها أعلى من هدير القطار نفسه، فكرة لن تدعني وشأني حتى إن حاولت العودة لسماع الموسيقى! ثمة شيء واحد يُشعرني بالأمان، هو وجودي وسط أجساد استطاعت التنفس على الرغم من كل شيء!

أتأمل وجوه النساء والفتيات كنوع من التلصص.. إلا أنه لا يضر!

وجوه تعاتب وجوها، وجوه تراقب وجوها، وجوه تستجدي وجوها.. هنا كل شيء يدور ولا يتوقف! مشهد واحد لا يتغير يستطعن تأديته ببراعة! يطلقن تنهيدة هارب وجد مأواه ما إن يدخلن العربة ليبدأ بعدها كل شيء: التفكير، الحديث، التمني والغضب، حتى مساحيق التجميل تفشل في إخفاء كل ما يحاولن إخفاءه! الضحك هنا ليس مرادفا للسعادة وإنما هو محاولة للتشويش! أرى بوضوح ظلال خيبات انعكست فوق وجوههن، بينما يحاولن الانشغال بالتلفت هربا من السكون!

تلك الحالة اللعين التي تستدعي صورا تضخمت تفاصيلها أسفل عدسة

القلب! فقط أصواتهن هي التي تنطلق في تلقائية شديدة دون ادعاء.. وأحيانا تنجح في إثارة قلقي! عليَّ الاعتراف بأن أصوات النساء تثير ذعري، إنها في الغالب تنبئ بكارثة! فهي إن ارتفعت فإنما ترتفع لشكوى أو لاستغاثة، ربما لأننا في بلاد اعتدنا ألا نسمع فيها سوى نباح الكلاب!

* * *

يضمني الزحام المتجه إلى بوابات الخروج، زحام لم يمنحني الدفء في هذا الشتاء! إنني أكره الشتاء؛ فهو فصل مثير للتفكير، ربما بسبب لجوء الناس إلى جحورهم هربا من البرد والمطر لتغيب الأصوات عن العالم فلا يعود هناك سوى صوت عقلي!

يبدو أنها على وشك أن تمطر؛ فلقد وخزتني للتو بضع قطرات فوق جبهتي! قبل أن أكمل سيري راعَني ما رأيته! جسد ضئيل أعرفه وقد انكمش على حاله بجانب الجدار! انفصلت عن كتلة البشر تلك واقتربت في حذر.. «زينب؟».. رفعت رأسها الصغير، وبعينين تنطقان بالإرهاق، وبابتسامتها الخاصة التي لا تمنحها لأحدٍ سواي، وبصوتٍ وهن لا يخلو من رقة قالت:

- ازيك يا أبله..
- ازيك يا زينب! إيه؟ كنتي نايمة هنا ولا أنا بيتهيألي؟!
- يعني، نهارك زي الفل..
- ده انا ما عرفتكيش وأنا جاية م الطرحة اللي واكلة وشك دي!
- أصل الشيخ قال لأمي لازم تحجبي بناتك عشان يساعدونا كل شهر م الفلوس اللي بتيجي م الجامع..
- شوفي كنتي هتنسيني!

أخرجته من حقيبة يدي، وناولتها إياه قائلة:

obeikan.com

- خدي الجوانتي الصوف ده، واستني عليَّ بكره أكون لقيت الشال، أصل ما كانش فيه وقت أدور عليه النهارده الصبح..

- ربنا يكرمك يا أبله، الجوانتي شكله حلو قوي!

أعشق صحبة الكائنات الضئيلة؛ لذا فقد صارت زينب جزءا من حياتي! التقيتها أول مرة منذ شهر وأنا أنتظر القطار القادم، بالطبع لم أنتبه لوجودها في البداية بسبب زحام البشر وزحام الأفكار أيضا، حتى شعرت بـ.. قُبلة استقرت فوق يدي! ارتبكت وانتبهت لأجدها واقفة تنظر لي في رجاء، ممسكة بعبوة مناديل وتحمل في يدها الأخرى كيسا أسودَ ممتلئا بعبوات أخرى!

لم تنطق ولم تتحرك بالضبط كما كنت أفعل! أمسكت بساعدها وقرَّبتها مني أكثر لأقول في غضبٍ تلقائي: «اوعي تبوسي إيد حد تاني!».. ابتلعت ريقها خوفا وأومأت برأسها اتقاءً لشري ! فقلت بندم: «حقك عليَّ، ما تزعليش مني.. انتي اسمك إيه؟»، فأجابت بشيء من الحذر: «زينب». منذ تلك اللحظة أستطيع القول إننا صرنا صديقتين! إنها حقيقة.. «زينب» صديقتي الوحيدة !

أعترف أيضا أنني أنتمي إلى تلك النوعية من البشر التي لا يستطيع أحد تحملها! اكتشفت أنني أمارس طفولتي على الجميع!

إذا نفّست عن حالي في جلسة فضفضة فلا أكتفي بذلك، ربما ألقي اللوم على من أنصت إليَّ راغبة في أن يجد حلا لمشكلتي! وبسبب ما أعانيه فلا أظن أن هناك من هو أصلح من «زينب» كي تكون صديقتي! تلك المخلوقة تذكرني دوما بأنني ناضجة بما يكفي وأنه ليس من حقي ممارسة طفولتي بتلك الوقاحة!

* * *

obeikan.com

ما إن وصلت «ندى» إلى المكتب - حيث تعمل - حتى نزعت حجابها وراحت تتحرك بين أركانه في نشاطٍ غريب !

إنه ليس ادعاءً، لكنها تعلم أن هذا المكان يحبها، وطاقة الحب هذه تمنحها الشفاء! اتجهت نحو حجرة مكتبه وألقت نظرة سريعة، كأنها تعيد تنظيمها في ذاكرتها أولا! وقفت أمام مكتبه تعيد تنظيم الأوراق، لكن على مهل! تتأمل كل ورقة لا لتقرأها وإنما لتقرأه هو! تحمد الله أنه ليس لديه ذلك الصبر الذي يمكِّنه من الجلوس أمام جهاز الكمبيوتر! إنها سعيدة لكونها تكمله في جزء من حياته.. في عمله !

تقرب كل ورقة إلى أنفها، تستنشقها فتعيد إحياء نفسها!

تحاول استحضاره أمامها بتنفّس عطر يده الذي التصق بالأوراق.. «ازيك يا ندى؟!».. أيقظها صوته من أفكارها لا لشيء إلا لتصير أمنياتها واقعا ملموسا! وجدته واقفا عند باب الحجرة بابتسامة لا تخلو من دهشة ! إنه هو! أول من ينطق باسمها كل صباح بصوته الدافئ الذي لا يزال محتفظا بنبرة شباب غريبة! تستطيع قراءة فيض من الأسئلة التي تدور في رأسه، لكنها غير قادرة على النطق، ربما لا ترغب فيه أصلا! يكفيها وجوده الذي يوقف ذاكرتها عن العمل !

أجل، فكلما كانت الذاكرة أضعف شعر المرء براحة لا توصف؛ فهو حينئذ سيتأكد أنه وُلِد لتوه وعليه أن يبدأ كل شيء من جديد دون أن تلاحقه صور أو مشاعر ستؤثر فيما يفعله.. فيصير كل شيء مُعادا وبلا طعم! وهي معه تصير مخلوقة جديدة في هذا العالم، حتى إن قصَّت عليه ما حدث معها في هذا الصباح فإنها ستفعل ذلك بسعادة دون أن تستحضر حزنا أو ضيقا أدّى دوره ببراعة ثم رحل! وجدته يقترب بخطوات متلكئة يسألها بفضول وقد أشار إلى رأسها:

- انتي خلعتي الحجاب؟!

- ده هنا بس..
- (بنظرة شك، وبالابتسامة نفسها) اوعي تكوني لابساه غصب عنك يا ندى؟!
- أنا كنت لابساه غصب عني، لكن بعد كده بقيت بلبسه بمزاجي..
- ده ازاي بقى؟!
- لقيت نفسي مضطرة ألبس حجاب وأنا في خامسة ابتدائي، ولما سألت ليه اتقالي حاجات كتير قوي ما اقتنعتش بيها وقتها! أصل أنا ما كنتش حاسة إني كبيرة لدرجة إني ألبس حجاب يعني! بقيت بخلع الحجاب لما بكون بره البيت وفي مكان ما حدش عارفني فيه، سنة واتنين وتلاتة التزمت بيه يعني.. دماغي كانت اتغيرت!
- (اقترب ثانية وهو يقول) النهارده إجازة المكتب!
- (بتلعثم) ما انا.. عارفة.. تعرف إن دي مش أول مرة آجي هنا! نسخة مفتاح المكتب دي بتلحقني وقت اللزوم!
- (ممسكا بيدها قبل أن يجلسها أمامه على الكرسي) وجيتي ليه أول مرة؟!
- ما كنتش أقدر أقعد في البيت يوميها فقلتلهم كالعادة إن مفيش أجازة الأسبوع ده.. كانت خناقة جديدة مع بابا!
- لسه عارف إنك بتاخدي كورس؟!
- أيوه!
- طب وبعد ما يخلص الكورس؟!
- هخترعلي حجّة جديدة، هو أنا هغلب؟!
- تقصدي هنخترع حجة جديدة، إحنا مش هنغلب..
ليس بالضرورة أن يساعدك أحدهم بالفعل، يكفي فقط أن يخبرك بصدق بأنه سيكون بجانبك عندما تحتاجه، وسواء كان أم لم يكن، فلن يتغير ما

تشعر به تجاهه، ربما لإيمانك بفكرة أن ما من شيء باقٍ على هذه الأرض!
تلقى ضحكتها الخافتة، ضحكة فرح يخبرها دوما بأنها تنير وجهها!
لا تذكر إن كانت قد أخبرته من قبلُ أنها لا تضحك بتلقائية إلا معه، لكن لا داعي لإخباره؛ فهو بالتأكيد يعرف تلك الحقيقة!

- ندى، انتي مالكيش صحاب؟!

- كان ليَّ زمان وطفشوا.. أصل كان ممنوع عليَّ أروح أزور حد من صحابي! وطبعا ما كنتش هخاطر وأخلي واحدة منهم تيجي تزورني وجوّ البيت مكهرب على طول! وحتى لما يعرف إن فيه واحدة صاحبتي جت زارتني مش هخلص م التحقيق: جت ليه؟ عايزة إيه؟ هي مين؟ ساكنة فين؟ كنتوا بتتكلموا في إيه؟.. قلت مش مهم، فيه تليفون، لكن لقيناه شال العدة، قلت مش مشكلة فيه موبايل، لقيته في يوم الصبح خده من تحت المخدة وأنا نايمة، ولما صحيت غرّقه قدام عيني في الحوض، مع إنه هو اللي كان جايبلي الموبايل أصلا!

- ما فكرتيش تتكلمي معاه، تحاولي تعرفي هو بيعمل كده ليه؟!

- بيعمل كده عشان فاهم الأبوة كده! عشان شايف إن ولاده مهما كبروا لسه صغيرين مش فاهمين حاجة، يبقى كل اختياراتهم أكيد غلط!

أبويا، أفعاله وردود أفعاله غير متوقعة! يمكن عشان كده ما ينفعش معاه مناقشة، أو يعني مش هتجيب نتيجة معاه.. حد يقدر يتفاوض مع الزلزال عشان يرجع في كلامه؟! تعرف.. مشكلة لما تحتاج حد يحميك، شوية بشوية هتلاقيه بيقيّدك وكل ده بحجة إنه خايف عليك طبعا! في نفس الوقت لما تحتاج تبقى حر، ساعتها هتحس بخوف وعدم أمان، كإن ضهرك انكشف فجأة وأي حاجة هتحصلك هتبقى غلطتك انت مش غلطة أي حد تاني! لكن الموضوع لا هو معقد ولا صعب، هما اللي مصرّين يحطوك في اختيارات صعبة طول الوقت !

- للدرجة دي خروجك مخوّفه ومضايقه؟!
- أنا فكرت فيها قبل كده! قلت طب أنا لو قعدت وما خرجتش خالص بره البيت تفتكري الحياة هتبقى هادية وهو هيبقى مبسوط؟! لكن المشكلة مش هي إني أستقل ماديا، المشكلة إن دماغي لسه شغالة! بس عشان تعرف إني ما بغلبش، أنا جبت م الفلوس اللي محوشاها موبايل (أخرجته من حقيبتها وأكملت) وبدخل منه ع النت وعرفت طريق كورسات، وكورس ورا كورس جه الشغل ومن شغلانة للتانية جيت هنا! طبعا هو اتحط قدام الأمر الواقع لما عرف إني حجزت أول كورس ليَّ، لكن طالما قدرت أخرج يبقى ما اظنش حاجة هتقدر تحبسني تاني! هو لحد دلوقتي ما يعرفش إن معايا موبايل، لما ببقى في البيت بقفله وبعرف أخبيه فين، مفيش غير ماما اللي عارفة، أصلها هي اللي كملت على فلوسي وجابتهولي.. تعرف، أنا نفسي أعمل حاجات كتير قوي! ساعات بشوف إني لسه ما عملتش حاجة في الدنيا دي، لكن برجع أقول إن اللي حققته بالمقارنة بظروفي يعتبر معجزة!

لا يمكنه رفض تلك الفكرة التي تجول برأسه وبقلبه أيضا، لكنه غير قادر على المقاومة أو فعل شيء يمكنه من الابتعاد أو التجاهل! كأن الوهن لم يصِب جسده فقط وإنما أوغل في داخله بلا رحمة!

يفكر، كيف كان ليتصرف إن قابلها في شبابه؟! إلا أن الإجابة تقف أمامه في تحدٍّ، كلما أعرض عنها أوقفته واعترضت طريقه! ما كان ليفعل شيئا؛ فالنتيجة لم تكن لتتغير لصالحه! سيشعر بالوهن نفسه في داخله كما السرطان، وأنه غير قادر على المقاومة، فقط لأنه واقع تحت تأثير ذلك السحر! مقدمات حب تحاصره وتُشعره بتلك اللذة، أنه ما زال على قيد الحياة، وأن ما من زمن محدد للأشياء التي ينبغي على المرء أن يفعلها! طالما استطاع أن يشعر بهذا الحب وما يحدثه في القلب من بعث، إذًا

فكل المستحيلات صارت ممكنة! بإمكانه أن يلعب وأن يركض، وأن يعود طفلا أيضا لا شابا في العشرين!

- (محاولا إيقاظ نفسه) طب وجيتي المرة دي ليه؟!

- (عقدت حاجبيها كأنها ترفض ما ستقول مسبقا) «نادر» هيخطب النهارده!

- بسرعة كده؟!

- أمه ما بتضيعش وقت.. بس أنا مش حاسة إني زعلانة!

أنا بس مش عارفة سنتين من حياتي تأثيرهم هيختفي في قد إيه، رغم إنها فترة قصيرة! ولا الزيارة الأولى والأخيرة ليهم عندنا البيت! وازاي سمعت الست والدته وهي بتقول لأمي قبل ما يمشوا: «جوزك صعب قوي، وابني مش هيعرف يتعامل معاه!».. وآخر مكالمة ليه لما قالي إنه مش هيعرف يتعامل معايا ومع ظروفي وعُقدي بعد الجواز.. عُقد؟! دلوقتي بس افتكر إني معقدة وإن نفسه قصير ومش قادر يستحمل؟! فكرني بصاحب المحل اللي في آخر الشارع، لما رفض يشغل بنت عنده لمجرد إن أبوها مطلق أمها ومتجوز من واحدة تانية والبنت ما بين هنا وهناك، سمعته بيقول إنه مش هيشغلها عنده بسبب ظروفها! لأنه ببساطة شايفها محرومة وممكن قوي تمد إيدها وتسرقه.. صاحب شغل مش قادر يستأمن بنت زي دي على محل أكل عيشه، يبقى ازاي فيه راجل ممكن يستأمنها على حياته وبيته وعياله؟ (بابتسامة ساخرة أكملت) يمكن هما صح، أنا نفسي لو ما ارتبطش في حياتي مش هستغرب قوي يعني؛ لأني أصلا ما اتعاشرش! المنطق ساعات بيبقى ظالم، مش كده ؟!

- إيه اللي يخلي راجل يقرر بإرادته يقضي بقية عمره مع ست واحدة بس رغم كل احتمالات بكرة ؟!

وإيه اللي يخلي الست دي تنسى كل اللي شافته قبل كده وتقرر تبدأ من

obeikan.com

أول وجديد كأن ما كانش فيه حاجة؟!
شوفي.. البشر مش مخلوقين من حديد، دول من تراب، يعني شوية هوا هيبعتروه! الكل بقى ملخبط وفيه بلاوي، الصغير والكبير، ولاد وبنات...
- (مقاطعة) بس البنات مش ملخبطين، البنات متلخبطين، ودي تفرق! البنت ما بتعملش اللي هي عايزاه، بتعمل اللي الراجل عايزه حتى لو كان الراجل ده لسه مش موجود في حياتها! تلبِس إيه؟ تتكلم ازاي؟ تروح فين؟ وكل ده عشان تعجب! حتى لما بتحب، وتعوز تبقى حرة في حبها ده، هتلاقي اللي المفروض إنه حبيبها ابتدى يشك فيها وفي تصرفاتها! مفيش بنت هترتاح لما تسمع إنها بتاعة حب وبس، ولا بنت هتفرح لما تعرف إنها بتاعة جواز وبس! الرجالة لو اتصالحوا مع نفسهم البنات هتتصالح مع نفسها!
تلقت منه ابتسامة دهشة، فقالت بعينين مرتعشتين:
- «أنا آسفة! ساعات بطلع كلام ما بيبقاش في معاده فيبان إنه جنان! أصلا كل حاجة بقت بتجبر الواحد إنه يأفور ويتجنن لحد ما بقت أمنية حياتي إني أقابل بني آدم عايش سنّه بجد، نسبة الغرابة والغموض اللي فيه ما تزيدش عن ١٪!».
قال مداعبا:
- «أعملك لمون»؟
فابتسمت:
- «لأ.. أنا عايزة أعرف إيه اللي خلاك تيجي المكتب النهارده».
- شوفي يا ستي، غير إنه مكتبي طبعا بعد إذنك، أنا كنت نسيت ورق مهم.. وحاجة كده اكتشفت إنها ضاعت مني!
- حاجة إيه؟!
أظهر صورة متآكلة لسيدة تبدو في العشرين فقالت:

- دي مراتك؟!
- الله يرحمها، ما بحبش أضيّع صورة ليها!
- (بلهجة فضول) كنت بتحبها؟!
- (ضاحكا) الأولانية ولا التانية؟!
- انت كنت متجوز اتنين؟!
- أنا اتجوزت اتنين.. أول واحدة كانت ملكة جمال! كنت وقتها أصغر من كده بكتير وكنت زيي زي أي واحد عايز يقربلها! طبعا لما اتقدمتلها في الأول رفضت! أصل أنا مين؟ أنا واحد شبه أي واحد! كبرت في دماغي، وقلت لحد ما الاقي طريقة تشوفني بيها هفضل حواليها على طول وقدامها منين ما تروح! كنت محظوظ والحصار جاب نتيجة، ولما اتقدمتلها تاني مرة وافقت، طرت م الفرحة! أصل مفيش أحلى من إن الراجل يصحى الصبح يلاقي واحدة م الجنة نايمة جنبه ع السرير! شهر، اتنين، تلاتة، سنة، وجمالها اختفى!
- إزاي؟!
- اتعودت! هي كمان ما كانتش بتعتمد في حياتها إلا على جمالها وبس..
الشكل حيلة ما بتدومش، والرجالة بيبقوا محتاجين حيل تانية!
وأنا شوية بشوية حسيت إنه ناقصني حاجة مش عارف إيه هي!
حاجة كنت بدوّر عليها في كل ست أقابلها!
- لحد ما قابلت مراتك التانية طبعا؟!
- أيوه.. تبان عادية جدا، لكن في الحقيقة هي كانت ست مالهاش زي رغم إننا كنا مختلفين في حاجات كتير قوي! أصل البني آدم لو هيصاحب فهو هيصاحب اللي شبهه عشان ما يحسش بالغربة، لكن بقى لو هيحب فهيحب اللي يكمله عشان ما يحسش بالملل.. تقدري تقولي إن الحب اللي ما يجمعش بين نقيضين ما يبقاش حب، أو إنه بيبقى أقوى أنواع الحب!

تعرفي؟ رغم إنها ما كانتش بتخلف إلا إني قررت أكمل حياتي معاها!

- انت مالكش ولاد؟!

- لو كنت خلفت كان زمان بقى عندي قدك!

- بس أنا مش بنتك!

إن استطاع تجاهل ما سمعه، فلن يستطيع تجاهل ما يراه! حصار نظراتها مميت!

إنه على يقين من أنه يعيش أحداث مسلسل سخيف، لكنه هذه المرة لم يعد مجرد مشاهد! لقد أضحى البطل وعليه أن يتصرف وفقا لسيناريو فُرض عليه ولا يعلمه! هذه الصغيرة منذ بدأت تسيطر على أفكاره إلى هذا الحد، وهو أصبح يلتهم السجائر التهاما، علّ قلبه يتبلد، أو يُدفن تحت هذا الكم من النيكوتين ليتوقف عن العمل إلى الأبد!

لم يشعر بحاله إلا وهو ينهض ويعدل من وضع الكرسي الذي كان يجلس عليه ليصير في مواجهة النافذة المغلقة، ثم قرب كرسيه منها وجلس بجانبها ليقول:

- بصي قدامك وقوليلي شايفة إيه..

لم يكن صعبا عليها إدراك ما كان يقصده! الصورة في زجاج النافذة كانت واضحة التفاصيل كأنها مرآة حقيقة سخيفة!

- أنا عايزة أسألك.. شايف فرق السن إزاي وانت بتعرف اللي جوايا من غير ما اتكلم؟! إزاي وأنا وانت بنمشي بنفس الخطوة؟! ده احنا حتى لو جربنا نجري هيتقطع نفسنا في نفس الوقت وعند نفس النقطة!

حسنا، إنه غير قادر على النقاش، ولا يرغب فيه حتى! نشوة الاستماع إلى صوتها أجمل من حديثها نفسه! يمكنه سماع صوت أنفاسها، ولا ينقصه سوى أن يشعر بدفء زفراتها فوق وجهه!

أصوات أفكاره كانت أعلى من زئير الطائرة الذي شقّ هذا الصمت؛ لذا

فلم ينتبه إلا عندما هرعت إلى النافذة لتفتحها وتتطلع ببصرها إلى السماء! ثوانٍ واستدارت قائلة:

- لحد دلوقتي لما بسمع صوت الطيارة بجري ع الشباك عايزة أشوفها! نفسي أركب طيارة قوي!

- أنا سافرت بيها كتير..

- وحسيت بإيه؟!

- حسيت زي ما اكون عمري ما عرفت عن العالم اللي تحت ده أي حاجة، كإنه مش مكاني وعمره ما هيبقى مكاني!

- تعرف إني ساعات ببقى عايزة أصرخ زيها، بس من غير ما حد يسمعني؟!

- انتي ما صرختيش قبل كده؟!

- (ضاحكة) لأ بعيط بس!

بنظرة واحدة أدرك أنها لم تعد قادرة على الضحك، وقريبا لن تعود قادرة على البكاء أيضا! اقترب منها، دفن رأسها في صدره وقال: «صرخي!».. ثانية، اثنتان، ثلاث.. الآن فقط يشعر بدفء زفراتها فوق وجهه، حول عنقه! الآن فقط يدرك كمّ المجهود الذي بذله كي يبقى صامدا منذ دقائق! ربما صار شخصا آخر، أكثر جرأة وقوة.. ربما صار قويا إلى حد الضعف! يداه تجولان في أرجائها بلا توقف! ذراعاه استقرتا حول خصرها، تطوّقانه في غضب! لا يزال رافضا لما يفعله، ولا يزال مستمرا أيضا؛ فوجودها يخبره بأنه لم يعد بإمكانه الوقوف في بداية الطريق!

قسمة ونصيب

(١)

ساعة يدي توقفت عقاربها عند الخامسة، ولا أستطيع تمييز الوقت! ربما الفجر أو المغرب، حقا لا أدري ولا أرغب في ذلك حتى! فمن الأفضل أن أهتم بمعرفة ما سوف يفيدني في المستقبل، وأنا لا أذكر أنني استفدت شيئا من معرفة الوقت، ربما لأنه يرفض التلكؤ حينما يتعلق الأمر بي! أسير في طرقات المستشفى في انتظار ما سيوقفني، فحتى الآن كل شيء يشبه كل شيء! الجدران الصماء تبدو كمجرد انعكاسات لبعضها البعض! تكتكة الخطوات المنتظمة الرتيبة لا تقل اختلافا عن تكتكة ساعة الحائط! حتى الهواء الذي أتنفسه يبدو اصطناعيا إلى أبعد حد، يوقف رغبتي في الحياة! لكني وجدت ما أوقفني أخيرا!

obeikan.com

إنها الأرقام نفسها وإن لم يعد لها البريق نفسه في عيني!
وددت لو فتحت باب الحجرة كي أتأكد، لكنني لم أفعل، تكفيني تلك النظرة الطويلة لباب الغرفة! كنت قد قرأت منذ أيام عدة مقالات تتحدث عن نفسية المنتحر وكيف أنه يقرر الرحيل بسبب حبه للحياة التي لم يعد يعرف عنها شيئا وترفض هي منحه مفتاح الاستمرار فيها! وكيف أنه يذكر فكرة الانتحار في أحاديثه مع من حوله، علّهم يشعرون بذلك الخطر فيمنعونه عن تنفيذ ما يفكر فيه!

* * *

حسنا، كان أمري مختلفا تماما! فعندما تصل إلى قمة الحزن سينكشف قلبك وستنهار حصونه، سيتساوى عندك كل شيء بكل شيء، وستكون الهزة التي بمقدار ٣ ريختر لا تختلف كثيرا عن مثيلتها بمقدار ١٠ ريختر.. وما أكثر الهزات وتوابعها في حياتي!
كنت أرغب في الموت لكن على يد أحدهم؛ فأنا لست شجاعة بما يكفي كي أقدم على تلك الخطوة! حاولت تنفيذ الفكرة بنفسي.. في لحظة لا معنى لها! كنت في المطبخ أتأمل نار الموقد والسكين، وأدركت حينئذ أنني أرغب في تجربة الفكرة وليس تنفيذها! تناولت السكين الذي لم يعد يفصله عن موضع شريان يدي سوى سنتيمتر واحد! كان من الممكن أن ينتهي كل شيء في دقيقة وبمنتهى السرعة والقسوة، لكنني كنت أشبه بالممثل الذي يعتذر عن نسيان حواره فتعاد اللقطة مرة واثنتين وثلاثا!
(مشهد الانتحار: كلاكيت أول مرة): أقرب نصل السكين أكثر فأكثر حتى أشعر ببرودته، ثم.. لا شيء!
(مشهد الانتحار: كلاكيت تاني مرة): شرود أجوف، بلا أفكار، حتى بريق السكين لم أعد أراه، ثم.. لا شيء!

(مشهد الانتحار: كلاكيت تالت مرة): صيحة رعب طويلة: «انتي اتجننتي؟!»، ثم وجه «كمال» ينظر لي في يأس! أحسست حينئذ أنه يعاقبني بعناقه، هذه المرة كان يحاول تكسير عظامي بين ذراعيه، وإن كان قد فعل ذلك عن غير قصد! ربما لأنه أحس بالخطر وبأنه على وشك أن يفقدني يوما ما!

على الرغم من ذلك كله لم أتراجع عن تنفيذ فكرتي الحتمية! وما جعلني أصر عليها هو ما حدث لذلك الكهل الذي رأيته وهو يعبر الطريق! لا أذكر سوى شعره الأبيض وصوت «طك» تضخمت في أذني، بسبب ذلك الصمت المفاجئ الذي عمّ كل شيء فلم يعد هناك سوى تماثيل من لحم ودمّ! كأنهم انفصلوا عمَّا هم فيه فتحول الأمر بالنسبة إليهم إلى لقطة مثيرة من فيلم ممل! الغريب أنني لم أبكِ، وإنما انفجرت في الضحك عندما وجدتهم يحملون جثمانه جانبا فوق الرصيف، ثم وضعوا فوقه بعضا من أوراق الجرائد التي كانوا يحملونها.. ولم يعد أحد يلتفت إليه! وفي لحظة أخرى (لا معنى لها) عبرت الطريق بسذاجة الأطفال لأدعها تحطمني هذه المرة بالمعنى الحرفي للكلمة.. إلا أنني لم أكن أعلم أنها ستكون أيضا محض تجربة! رحلة موت قصيرة وانتهت! أدركت بعدها أن المحظوظين في هذا العالم هم من يتعرضون للحوادث لأنهم اقتربوا من الموت! واجهوا ذلك الوحش الغامض وتعرفوا على تفاصيله ثم استطاعوا الانتصار عليه.. أو بالأحرى.. الهروب منه!

وجه «كمال» كان يصطخب بأحاديث كثيرة! شعرت بأنه يعيد ترتيب تلك الفوضى في عقله، فبادرته بصوتٍ ثابت لم يتأثر بالحادث، قائلة: «أنا بتنفس، لكن مش قادرة آخد نفس.. أو إني باخد نفس لكن مش حاسة إني عايشة.. هو إحنا نزلنا الأرض ليه؟!».. لم يجب، وإنما راح يتأمل جسدي الراقد أسفل الغطاء، ربما كان يريد التأكد من أنني ما زلت على

قيد الحياة! اختلاجات صدري، حيث شهقات، كانت هي الموت بعينه، كأنه ليس بالضرورة أن أرحل عن هذه الأرض كي أموت! سمعته يجيبني بسؤال: «ما كانتش حادثة! انتي رميتي نفسك قدام العربية، مش كده؟!» باقتضاب قلت: «جاوبني الأول.. لو عارف!». تخلّى عن ارتباكه وصمته الذي ينجح دائما في إثارة جنوني وقال: «نزلنا الأرض ناخد مناعة، الغلط في الجنة مش مسموح بيه!».. يده كانت تربت فوق رأسي، فأدركت حينها أنه بإمكاني أن أصير حيوانه الأليف، قال:

- ممكن تبطلي تفكير شوية؟!

- وانت ممكن تبقى بني آدم طبيعي شوية في حياتك.. وتبطل المثالية والفلسفة دي؟!

- مفيش حاجة في الحياة تقدر تخلي البني آدم يفضل طبيعي، المثالية اللي انتي شايفاها أنا مش شايفها، والفلسفة اللي بتتكلمي عنها دي بتفرض نفسها.. الواحد لو بطل يتفلسف وينظر مش هيحس إنه بقى متحكم في حاجة أصلا.. والإحساس ده هو اللي مخلينا عايشين!

- تعرف إنك السبب اللي خلاني أنتحر؟ كل ما بشوفك بكره نفسي، حد يقدر يكمل في الدنيا دي وهو كاره نفسه؟!

- وهو كان لازم أكرهك عشان تحبي نفسك يا ليلى؟!

انتي فاكرة الحب والكره بييجوا بالساهل؟!

- أهو ده الفرق اللي بيني وبينك! أنا شايفة الحب والكره دول ممكن يحصلوا في لحظة، وانت بتديهم وقت!

- أنا عايز أقولك إنه ممكن تلاتة يحصلهم نفس المشكلة، واحد يموت والتاني يقف والتالت يكمل عادي! لا اللي مات كان خرع ولا اللي وقف كان عضمه طري ولا اللي كمل كان جبلة ما بيحسش.. التلاتة صح، بس هي تركيبة بني آدم عن التاني! لكن انتي ما بتحبيش تقفي في

نص الطريق، الغريب إنه بدل ما تكملي اخترتي إنك تموتي.. بس أنا مش هسمحلك تموتي يا ليلى!

- أنا...

- (مقاطعا) أنا ممكن أتكلم معاكي في كل اللي انتي عايزاه وما ازهقش! لكن قبل ما تنهي الحوار ده من نفسك زي كل مرة، عايز أقولك إن مش بس آية اللي ما كملتش سنتين هي اللي محتاجاكي!

أنا عايز أتكلم عن نفسي! أنا مش بس محتاجك! أنا محتاج وجودك في الدنيا دي حتى لو ما كناش في بيت واحد !

«أنا.. أنا.. أنا»! لِم شعرت بأنه يقول تلك الكلمة للمرة الأولى في حياته؟! كمال في نظري هو شخص واقع تحت تأثير الـ«بِنج»؛ لذا فهو لا يدرك كمّ وعمق الجروح في جسده! حتى إن رآها بطريقة أو بأخرى، فلن يصدق، كأن ذلك يحدث لشخصٍ آخر غيره!

* * *

obeikan.com

(٢)

ثمة حركة غريبة ومقلقة تثير انتباهي! حركة شاهدتها من قبلُ، تنذر بالموت! تكتكة الخطوات صارت أعلى ولم تعد تحتفظ بعدُ بهدوئها وانتظامها! يبدو أنهم أخرجوا للتو أحد المرضى، فعندما وصلت لمصدر تلك الأصوات وجدت الحجرة خالية وبابها مفتوحا و.. ودماء لوّنت ملاءة السرير! بقعة حمراء واسعة، صارخة، تشبه إلى حدٍّ كبير تلك البقعة الأولى التي تسببت فيها رغما عني عندما كنت صغيرة!

* * *

الدماء الأولى:

كنت عائدة من المدرسة وانتبهت لذلك السكون العميق في البيت! هممت بالذهاب إلى أمي لأسألها عن غياب شقيقتي الصغيرة، لكنني لم أتمكن من ذلك! ما إن استدرت حتى وجدت ثلاث سيدات متشحات بالسواد لا أذكر منهن سوى عيونهن!

لم أتأكد أنني أشعر بالخوف إلا بعد أن أغلقت إحداهن باب حجرتي! حسنا، ربما لم أنتبه إلى ما كنت أقول، لكنني كنت أصرخ وحيدة، أنادي أمي دون جدوى كأن مئات الأبواب والجدران عزلت غرفتي عن العالم كله فجأة! كنت أعيش أحد الكوابيس التي تتحقق حرفيا على أرض الواقع، تلك اللحظات التي تتوالى فيها الأحداث بشكلٍ خاطف فلا تعطي للمرء أي فرصة للتساؤل! سرعان ما أصبحت مقيدة فوق فراشي بعدما أمسكت إحداهن بذراعي وأزاحت الأخرى عني ملابسي ليصير نصفي

السفلي عاريا تماما.. وفي قوة فُتحت ساقاي عن آخرهما!
ربما ذلك الصوت الذي سمعته كان صوت عظامي وهي تتكسر!
كنت أشاهد خيالات ذلك الكابوس الذي راحت تختلف تفاصيله فأزداد أنا ذعرا بالمقابل!
وجه قاس يحمل ملامح منزعجة، مشدودة! أجساد بدينة متحجرة كالصخور تتراكم من فوقي! يد تمسح على شيء فيزداد لمعانه تحت الضوء! علا صراخي بعدما أيقنت أنني سأُقتل! توقفت عن التحرك للحظات محاولة تجميع أنفاسي بصعوبة، ثم أطلقت صرخة طويلة أنادي فيها أمي، لكن الوقت كان يمر بسرعة لا ترحم ولم أجد أحدا قادرا على إنقاذي! حتى شعرت بأصابع تتلاعب بجزء عميق بين فخذي! سكتُّ، وربما توقفت عن التنفس أيضا، لم يكن خوفا فقط هذه المرة، وإنما دهشة!
عليَّ أن أعترف أنه على الرغم من الألم لكنني كنت أكتشف جسدي من جديد.. ثم.. انقطع كل شيء من حولي.. تفكيري، خيالاتي، خوفي ودموعي.. فقد أطلقت تلك الصرخة الأخيرة!
صرخة مختلفة، فريدة، لا أظن أنها ستتكرر في حياتي مرة ثانية!
صرخة كانت جزءا من الجحيم نفسه، كنت من خلالها أخرج ما تبقى فيَّ من حياة!
لذلك عجبت لكوني لم أمت على الرغم من كل ما حدث!
استسلمت بعدما بلغ بي الألم أقساه، فلم يعد هناك جدوى من المقاومة!
تسللت إلى أنفي رائحة غريبة، ورحت أبحث بعينين مرهقتين عن دمي في ثيابهن السوداء، لكن الظلام لم يمكنني من ذلك!

* * *

الدماء الثانية:

قررت من دون تفكيرٍ مسبق الذهاب معه إلى مرسمه!

«طارق» كان أول من التقيته عند دخولي الجامعة! كان يبدو كالمجانين وهو ممسك بالطبشور، يرسم كل ما يخطر بباله فوق الجدران، والأهم من ذلك أني معه كنت أدرك أنني أعشق صحبة المجانين! عند وصولنا أزاح عنها الغطاء! كانت لوحة، في نظر الكثيرين تحتاج إلى تفسير، أما بالنسبة لي فلم أكن في حاجة إلى ذلك! لا أعلم إن كنت قد فهمتها كما فهمها هو، إلا أنني انتبهت لسؤاله: «ده إنتي على فكرة.. هاه، شايفة إيه؟!»

فأجبت: «بنت، بتجري، غضبانة.. بس مش حاسة إنها بتهرب!

ما رسمتهاش ليه شبهي؟!»

بنبرة تأكيدية: «صحيح هي مش شبه جسمك، لكنها شبهك فعلا!

آي نعم اللوحة محتاجة تتفسر لكن انتي نفسك كده!»

بعفوية سألت: «وكونها محتاجة تتفسر ده حلو ولا وحش؟!» مرت فترة صمت قصيرة للغاية، لكنها حملت معها إجابة عن سؤالي وربما تساؤلات أخرى!

أجاب: «سواء حلو أو وحش، النتيجة واحدة!»

سألت: «نتيجة إيه؟!»

فرد قائلا وهو يمد لي يده: «هاتي إيدك»! ما إن احتضنت كفّه كفّي حتى شعرت بأنه يمتص كل شيء: أفكاري، حيرتي، وعيي، حتى إرادتي! لم يعد بوسعي سوى الانتظار ولم أكن أكتشفه بقدر ما كنت أكتشف حالي! قرار الخوض في علاقة جسدية إما أن يكون حبا وإما أن يكون تمردا، وفي حالتي كل سبب كان أقوى من الآخر! كأنني أواجه ما كانت أمي تحاول حمايتي منه كما ظنت! ربما فعلت ذلك فقط لأصرخ في وجهها كما كنت

أتخيل، لكن ما كنت على يقين منه أنني أحببت «طارق» إلى حد الخوف من لحظات لن أكون فيها معه!

أدركت حينئذ أنه باستطاعة المرء أن يبتلع من يحب، أن يتشبث به إلى حد أن ينهش جلده دون وعي! للحظة بدت فيها تلك المسافات التي كانت تفصلنا منذ دقائق من أكثر الأمور سخفا وظلما في العالم!

كنت أتأرجح بين ذراعيه في استسلام.. وعند تلاقي أعيننا كانت تبدو صادقة، غير مفتعلة، لا مجال فيها لجرأة أو تحدٍّ!

لا أذكر كم مرة همست إليه فيها بأنني أحبه، ربما رحت أعلن عن ذلك بتأوهات تلقائية كنظراتنا! وجودي معه وربما وجودي فيه جعلني أدرك أنني المشكلة وهو الحل.. وأفقت، لأجد حالي ممددة فوق فراش صغير، عارية وساقيّ متباعدتين! اعتدلت فرأيتها! دائرة دماء وحيدة، سمعت أنينها بطريقة ما! حاولت أن أتذكر.. «هل تألمت كما في المرة السابقة؟!» لكن أنفاسه اعترضتني لأسمعه يهمس لي:

- «تتجوزيني؟»..

واجهته بنظرة خاوية كأنني لم أكن أراه وقلت بسخرية لا أعلم مصدرها: «إيه؟ عجبتك ولا عايز تصلح غلطتك؟»..

نظرة ذهول منه ثم ضحكات قصيرة حتى قال: «وبتقولي عليَّ أنا اللي مجنون؟! انتي عاجباني من قبل ما اعرفك أصلا! قومي معايا خلينا نروح لابوكي»..

كل ما أذكره بعدها هو ذلك الطريق الذي بدا طويلا وخاويا من المارة، كفّه التي كانت تحتضن كفّي ثم شعوري بأن ثمة قوة تنتزعها مني، أو تنتزعني أنا منها! لحظات وقد تكوّنت الدائرة.. سيارة واقفة، أناس محتشدون.. وهو يتوسطهم غارقا في دمائه!

* * *

(٣)

على الرغم من تعرضي لأجواء المشفى من قبل فإنني أراقب كل شيء كأنها المرة الأولى!

قد تكون بوادر تلكؤ لرؤية أي شيء غريب، لكن ما رأيته لم يكن غريبا وإنما كان «مُعادا»!

سيدة على وشك الوضع، تتألم فوق كرسي متحرك! تحاول كتمان صراخها فأسمع ذلك الأنين العميق! إنني لم أتمكن من عيش لحظات الألم تلك، فسرعان ما كنت تحت تأثير المخدر لإجراء الجراحة القيصرية! «فترة الحمل» تثير بداخلي الشوق أو بالأحرى الفضول لـ«نورا» رفيقة العيادة! تلك الفتاة التي كنت أراها جالسة في انتظار ميعاد الفحص!

* * *

مظهرها الموغل في الصمت يعطي إيحاءً بكونها جسدا لا يتنفس! استطعت التقرب إليها فقط بهدف معرفة سبب مجيئها، ذلك السبب المرتبط بصمتها الذي يشبه صمت الموتى! لا أعلم لِمَ تمكنت هي بالذات أن تجذبني إليها، حتى أخبرتني فاستطعت تفسير ذلك السبب غير المفهوم! كانت تبدو في حديثها كمن يكشف جرحه صارخا بعد طول صبر.. أو بعد نفاد الصبر! علمت أن سبب مجيئها إلى هنا هو تعرضها للختان مرتين! فالقصة ببساطة تتلخص في:

«عادة سرية ثم ختان ثم عادة سرية ثم ختان ثم لا شيء.. أو بالأحرى شيء مجهول يتضخم فيها ليبدأ العبث بحياتها!»

في المرة الأولى كانت بعمر العاشرة، ودون أن تعلم كانت تمارس العادة السرية، فعلى حد قولها ما كانت تعيشه من عزلة جعلها تبدأ في اكتشاف جسدها أولا قبل اكتشاف العالم! عندما علمت أمها بذلك أجرت لها عملية الختان على الفور حتى تتوقف ابنتها عمّا كانت تفعله.. إلا أن ذلك لم يحدث! عادت مجددا إلى ما كانت تفعله رغما عنها، علّها تتمكن من وقف ذلك «الهيجان» الذي كانت تشعر به! وللمرة الثانية عندما علمت أمها تعرضت للختان مجددا! إلا أنه بعد مرور فترة لم تعد تشعر بوجود شيء لديها كمعظم الفتيات، وإنما ذلك الجسم المجهول العميق بين فخذيها الذي أتى بها إلى الطبيب باحثة عن تفسير وحل!

كان من الطبيعي ألا تخبر «نورا» أحدا عمّا تعانيه باستثناء الغرباء حتى لا تتعرض للعقوبة نفسها للمرة الثالثة!

* * *

(٤)

لم أقصد الوصول إلى هنا! خدعتني قدماي مجددا! الكون كله يخدعني فيرغمني على مواجهته.. أو اللجوء إليه!

عندما بلغني نبأ حادث السيارة الذي تعرض له «كمال» شعرت بخطر لم أصادفه في حياتي! فلقد اكتشفت أنه كل ما أملك في هذا العالم وأنني من دونه سأصير عارية!

جلست على الأرض أمام باب حجرته، أتأمله.. وربما أخاطب «كمال» دون أن يسمعني!

أعلم أنني آلمته كثيرا، بل سرقت منه كل ما تمكنت من سرقته!

الغريب أنه لم يشكُ قط! الغريب أنه لا يزال ممتنا لي ولوجودي معه!

الغريب ما أراه من سعادة يعيشها بسبب وجود «آية» ربما أكثر من سعادتي أنا بها، على الرغم من أنه أُجبر على أن تكون ابنته!

أجل، سرقت منه كل ما تمكنت من سرقته، لكنه هو من سمح لي بذلك منذ البداية!

سرقات إن استطعت حصرها فستصير أربع سرقات!

* * *

obeikan.com

السرقة الأولى:

عندما كانت تقع عيني على حقيبته المفتوحة دائما ورؤية قطع الشيكولاتة التي تثير أعصابي، فلم يكن بوسعي سوى أخذها بكل بساطة والاستمتاع بحلاوتها في فمي دون الشعور بأي ذنب! كنت غير مقتنعة بأنني أمارس السرقة أصلا!

«كمال» لم يكن مجرد زميل لي في الصف وإنما كان مخلوقا وديعا - ولا يزال - إنسانا غير ساخط أو متذمر، كل ما يرغب فيه هو أن يساعد الجميع فيحبه الجميع، والأهم من ذلك هو أن يصير قريبا مني!

وما جعلني أتأكد من أن ما أفعله لا يعد سرقة هو ذلك اليوم الذي عدت فيه للمدرسة بعد غياب أسبوع، عندما جاءني «كمال» واضعا أمامي علبة صغيرة بها ست قطع من الشيكولاتة!

أخبرني أنه اعتاد أن يجلب لي كل يوم قطعة منها، ولأنه كان يخجل من أن يعطيها إياي فكان يتعمد ترك حقيبته مفتوحة كي أتولى الأمر بنفسي! ولكوني قد تغيبت لستة أيام كاملة عن الصف فكان عليه أن يعطيني الست قطع!

* * *

obeikan.com

السرقة الثانية:

كنت قد تأكدت أن «كمال» لا يصلح زوجا لي، ولم يكن ذلك فقط بسبب ظهور «طارق»! لكن هناك أناسا غير قادرين على تقدير المسافات التي تفصلهم عمَّن يحبون، والنتيجة: زوال الشغف والحب والاهتمام، ولن تبقى سوى صور لن نرغب حتى في تذكرها.. وقد كان «كمال» ينتمي إلى هؤلاء!

- مشكلتك إنك بتصدقي اللي بتشوفيه في الأفلام!

- واللي في الأفلام ده بيجيبوه منين؟ مش م الحياة؟!

- هما بيصورولنا إنه من الحياة، فبننسى إن فيه حاجة اسمها خيال مؤلف!

- لو كان اللي في الأفلام ده مش حقيقي، فهو ع الأقل مش مستحيل.. يعني ممكن يتحقق!

بس اللي زيك بيكسلوا يحققوه وبيكتفوا إنهم يعيشوا القصة في الساعتين بتوع الفيلم! مشكلتك انت بقى، إنك لما بتحب تكسر الملل اللي في حياتك بتكسره بحاجات برضه مملة، وفي الآخر ترجع تستغرب.. هي ليه الحياة لسه مملة؟!

- انتي ازاي قادرة تبقي كده؟!

- أبقى إيه؟!

- قادرة تمثلي إننا إخوات فعلا!

- عشان دي الحقيقة! دي مش معرفة سنة ولا اتنين، إحنا فعلا متربيين سوا! مشكلتنا إننا عارفين بعض كويس قوي، فما ننفعش لبعض بالطريقة اللي انت متخيلها..

- (مقاطعا) م الآخر فيه حد تاني مش كده؟!

- أيوه فيه حد تاني، ولما ظهر خلاني أعرف أنا عايزة إيه، يمكن كويس إنه ظهر بدري وكل واحد فينا لسه حر!
انت سلمت باللي قالوه أهلي واللي قالوه أبوك وأمك، الله يرحمهم، كمال لليلى وليلى لكمال، فما حاولتش تشوف حد تاني!

* * *

obeikan.com

السرقة الثالثة:

هؤلاء الذين يرحلون في صغرهم، لا يسعنا سوى أن ننصبهم آلهة أو ملائكة؛ فالوقت لم يسعفهم ليكونوا بشرا.. أو أسوأ من ذلك!

ربما إن ظلوا أحياءً لسنوات لاستطعنا أن ندرك أنهم يكذبون، ويخطئون، ويتغوطون مثلنا!

في النهاية.. منحتني الدنيا بعضا من «طارق»، لم تتركني وحيدة هذه المرة! وكما استيقظت على حقيقة أنني «حامل»، فاستيقظت أيضا على أول صفعة أتلقاها من أمي!

وجدت حالي أجاهد في قول تلك الكلمة التي بدوت وكأنني ألفظها - ربما لأنه لم يكن باستطاعتي تحمل الضربات

- «كمال»! عندما علمت بأنه قد تم استدعاؤه فضَّلت أن أبقى ساكنة خلف باب حجرة المكتب، إلا أنني لم أتمكن من سماع أي شيء، كحال الغريق الذي تجذبه قوة ما إلى الأعمق!

بدوت كشيء شبه حي في هذا العالم، فالنبض في بعض الأحيان لا يعني أنني على قيد الحياة!

انتبهت لصوت يشبه إلى حد كبير صوت «الكرباج» وهو يصعق الجلد بلا رحمة! لا أعلم لِمَ قدرت على سماع ذلك الصوت بالذات، لقد كان صوت صفعة تلقاها وجه «كمال»!

وجهه الذي تجمد فلم يعد يختلف كثيرا عن وجوه الموتى، ربما لا ينقصه هو أيضا سوى دائرة دماء! علمت بعدها أنه اعترف بذنبه غير المقصود، وأنه لم يكن يردد سوى كلمة «آسف»..

وفي غضون أيام كنا قد تزوجنا!!

* * *

السرقة الرابعة:

حينما كنت في حجرتي أبدل ثيابي ونسيت أن أُحكم غلق الباب فتُرك موارَبا!

اعتاد «كمال» كل مساء أن يقضي ساعات بصحبة «آية» إلى أن تنام، ولأنه لم يكن يعلم بوجودي داخل الحجرة فكانت دفعته للباب تلقائية! الغريب أنني لم أصح فيه ولم أنهره ولم أحاول حتى أن أداري جسدي العاري أمامه، على الرغم من كونها المرة الأولى التي يراني فيها على هذا الحال! نظرت إليه وتذكرت قصة تلك القطة التي وجدت حالها في غرفة مغلقة المنافذ مع طفل يحب العبث! ولكونها اكتشفت بعد محاولات عدة للهرب أنه لا جدوى منه قررت أن تقلب الموازين في لحظة.. فاستدارت له وهاجمته بكل قوتها! أجل، كنت أعبث ووددت معرفة رد فعله في موقف كهذا! لا أذكر كيف بدا جسدي في الضوء الخافت.. ربما لم يكن يعلم بأسرار ترهله بعد مرور أكثر من تسعة أشهر! لا أنكر أن ما جعلني أستمر في وقوفي عارية هو نظراته التي أشعرتني بأنني عارية بطريقة أخرى.. كأنني عارية فوق عُريّي! نظرات كانت تخترق جلدي، أراد بها أن يحيا تلك اللحظات التي ينزع فيها الرجل الثياب عن امرأته! لكن.. لأنني نسيت إغلاق المنافذ، فقد غادر مخلفا وراءه صفقة الباب المدوية!

لم أتمكن من النوم تلك الليلة، ليس بسبب تفكيري فيما حدث وإنما بسبب تأخره هذه المرة وقد قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل! كان يهرب وكنت على يقين من أنه لن يتمكن من ذلك طويلا، حتى سمعت أصواتا بالخارج فعلمت أنه قد عاد! تسللت إلى حجرته وأخذت في الاقتراب منه حتى صرت خلفه ثم أحطته بذراعي! أدركت أن أصابعي

كانت متجمدة، فجسده لم يكن دافئا فقط وإنما كان ساخنا إلى حد أنني أحسست بأبخرة العرق تتصاعد من جلده على الرغم من صقيع ديسمبر! وبعدُ.. لم يصبح لي الحق في إبداء فعل أو حتى رد فعل.. فقد انقلبت الموازين في لحظة!

سرعان ما تمزقت ثيابي، وتعجبت من ذلك الجسد النحيف الذي صرت أشعر به ككتلة ضخمة تدك جسدي! لا يكفيها تقييد حركتي وإنما استطاعت أن تشل عقلي عن التفكير!

حاولت أن أكتم أنيني دون جدوى! أتت قبضاته بغضب أيام طويلة عاشها فبدت وحشية ومجنونة! قدَّم كل ما لديه دفعة واحدة، خوفا من غد قد يحمل فراقا أو فقدانا! بدا كمن يحاول أن يوقف نزيفا ما بداخله! كنت أشعر بأنه ينظر لي طوال الوقت، وبالمقابل كنت أتمسك أكثر بتلك الظلمة التي اخترتها!

ربما كنت أضغط عيني أكثر فأكثر راغبة في الاحتفاظ بتلك الصورة التي كان ينسجها خيالي وقتها! وحين صدقت تلك الصورة التي تكونت في عقلي تمام التصديق، قررت الرؤية لأرى ما هو أبعد من الخيال نفسه!

كيف تتغير ملامح وجه المرء إلى هذا الحد؟! عيناه الضيقتان كانتا تتسعان كأنهما ترغبان في التهامي!

تزايدت خطوط وجهه وصارت أكثر بروزا حتى بدا ككهلٍ في الأربعين.. بل ربما إن كان ثمة ضوء كاف لاستطعت رؤية شعيرات بيضاء في رأسه!

من هول ما كنت أرى، فقدت شعوري بالخوف، ولذا فرُحت أتأمله وأغوص أكثر في عينيه علّي أتمكن من تفسير ما يحدث! بيد أنني وجدت أصابعه تسير فوق وجهي فأغمضت عيني مجددا!

بثّ بين شفتي كلمة هامسة لم أقدر على تمييزها، وبعد.. أحسست بذلك البرد أو ذلك الخوف!

ترك جسدي واستلقى على ظهره بجواري!
قدرتي على تحمل ذلك الصمت مجددا كانت معدومة، فيكفي ظني بأننا لم ننطق بكلمة منذ مائة عام!
على الرغم من ذلك وعندما بدأت في الحديث، بدا صوتي متهدجا كأنني استنزفته في الصراخ والنحيب، قلت له وأنا أتأمل سقف الحجرة الأسمنتي: «سنة بحالها.. كنت عايشة فيها مع بني آدم تاني!!»
فأجاب بصوت عميق يحمل مزيجا بين نبرتين إحداهما لـ«كمال» والأخرى لغريب لا أعرفه: «تعرفي إيه مشكلتك؟ إنك عايزة حد بينور.. رغم كده وحتى لو أنا كنت البني آدم ده، برضه ما كنتيش هتشوفيني!».
فترة صمت أخرى امتص فيها شهيقا طويلا يستعد من خلاله للتخلص من كل ما يثقل صدره: «كنت فاكر إنه يوم ما تقرري نعمل كده سوا يبقى عشان عايزاني أنا معاكي.. أنا بس! لكن م الآخر انتي كنتي محتاجة تعيشي الإحساس ده وخلاص!»..
شهيق آخر موجع ليكمل: «على فكرة أنا جربت الموت زيك!
جربته مرتين، مرة بوفاة أبويا ومرة بوفاة أمي! صحيح هما سابولي بيت وفلوس، كإنهم كانوا عارفين إنهم هيمشوا بدري.. لكن ده لوحده ما يكفيش! عشان كده أنا مش ببالغ لما بقول إني ماليش غيرك! ما بتكسفش لما أعترف إني أدمنتك! مفيش غيرك عارفني كويس لدرجة إنه بقى صعب إني أبتدي مع حد تاني!
تعرفي.. يمكن الناس اللي بنحبهم بيموتوا عشان ما يجيش علينا اليوم اللي نتمنى فيه موتهم!»..
انتفضت ضجرا من الجملة الأخيرة التي تفوه بها، فاقتربت منه حتى صار جسدي فوق جسده وقلت:
- انت عايز تكرهني فيه؟!

- أنا ساعات بتمنى أكون مطرحه!

- تعرف انت.. لما تكون طالع رحلة طويلة ومتعبة قوي بس لا بد منها، ساعتها بتجهز نفسك وتاخد كل حاجة بتحبها معاك، حتى إنك بتبقى عايز تجيب الأكل اللي بتحبه عشان تقدر تتحمل تعب الرحلة، مش أكل زيه زي أي أكل، آه هيساعدك تقف على رجليك وتكمل لكنه من غير طعم وهيفضل محسسك بالجوع رغم إن بطنك مليانة!

تستغرب لو قلتلك إن ده الفرق بين راجل وراجل تاني عند أي ست؟!

ده الفرق بينك وبين طارق.. اللي أنا ما لحقتش أشبع منه!

obeikan.com

(٥)

«كده أصحى ما الاقيكيش جنبي؟!»..

لم تكن تلك الجملة هي أول ما استقبلني ما إن فتحت باب حجرته، وإنما سبقتها ابتسامة أغلب ظني أن لديها القدرة على هداية البشر كافة! اتجهت نحوه وجلست على الكرسي بجوار سريره، قلت في لهفة:

- بلاش تتكلم عـ...

- (مقاطعا كعادته) أنا كويس يا ليلى ما تقلقيش (أكمل مداعبا) إحنا الاتنين عملنا حادثة، بصرة أهو..

- بلاش تتكلم يا كمال عشان ما تتعبش..

- أنا لو ما اتكلمتش هتعب أكتر، مش كفاية لما عرفت إني ما خرفتش وأنا في البنج.. دي مصيبة على فكرة! الظاهر إن فيه حاجات لازم تتعمل والبني آدم في حالة وعي كاملة.. لو كان م الأول فيه كلام ما كنتش عملت حادثة، وما كنتيش حاولتي تنتحري، (ضاحكا) وما كنتيش تفضلي تسرقي الشيكولاتة لحد دلوقتي!

جسدي كان يتألم، فلم أقدر حتى على تحمل الضحكة! جسدي الذي يتألم منذ شهر بغيابه عني! ربما كان ذلك صحيحا، قد يسبق الجسد القلب في العشق! أكمل قائلا:

- ما اقصدش إن الكلام كان ممكن يمنع حاجات كتير إنها تحصل، الكلام ما بيصلحش.. الكلام بيفوَّق، حاجات كده لازم نطرشها عشان التعب ينسحب م الجسم واحدة واحدة!

- (تلقيت منه تلك النظرة التي قالت لي: دورك) أنا آسفة، جاية متأخرة لكن.. آسفة! الوجع مني كان فوق طاقتك!

- الوجع منك.. الألم ما بيتجزأش، ما بيتوزنش وما اقدرش أقيسه بالترمومتر! الألم ألم! وطالما جيت الدنيا دي يبقى أكيد هوجع وأتوجع، من مين وازاي بقى ما تفرقش، كده يبقى كل البشر خالصين.. أنا مثلا وجعتك!

كفاية إني شفتك بتبعدي وأنا كنت واقف مكاني مش عارف الهدوء ده جاني منين! كفاية إني عارف إنك مضطرة تعيشي معايا في بيت واحد وانتي مش عايزة ده !

(يصمت للحظات ليكمل) إلا صحيح يا ليلى.. هو انتي حسيتي بإيه لما قربتي م الموت؟!

- حسيت.. إن فيه حاجات ما لحقتش أستمتع بيها بذمة في حياتي! اكتشفت مثلا إني خلصت طفولتي بدري بدري، وإن العمر بيجري بسرعة الصاروخ!

- ضحكوا علينا لما قالولنا العمر بيجري.. بقينا عاملين زي اللي في سبق ويا نلحق يا ما نلحقش، فكان طبيعي تبقى الحياة في نظرنا مملة وظالمة وبقينا نتمنى نخلص منها بسرعة! لكن في الحقيقة وقت ما تبقي عايزة تعملي حاجة هتقدري تعمليها فعلا! سيبك م الشعر الأبيض والتجاعيد، دي مجرد خدعة عايزة توقفك.. انتي مثلا شايفة إنك خلصتي طفولتك بدري، لكن ما خدتيش في بالك إنك ممكن ترجعي تعيشيها تاني مع بنتك! خصوصا إن «آية» لسة صغيرة قوي، يعني قدامك فرصة طويلة.. البت دي وحشتني، عايز أشوفها وأقعد ألف بيها زي ما انا متعود لحد ما تنام!

- طب وانت؟ حسيت بإيه؟!

- حسيت إني عشت وأنا مكبر كل حاجة.. عشت بأفورة يعني.. كنتي متضايقة مني اكمنّي سكت وما برأتش نفسي قدام أبوكي وأمك؟! طب

حاولي تحطي نفسك مكاني كده! ما كنتش هقدر أسيبهم يتصرفوا معاكي، ويا يخلصوا منك يا يخلصوا م اللي في بطنك، اللي هو أصلا الحاجة الوحيدة اللي فاضلالك.. زي ما انتي الحاجة الوحيدة اللي فاضلالي بالظبط! عايزة تعرفي أنا حسيت بإيه لما جربت الموت ؟

حسيت إني عبيط؛ لأن اللي كنت بتمناه حصل بس ما كنتش شايفه! طول عمري كان نفسي تبقي جنبي ومعايا، وفعلا بقيتي.. صحيح الطريقة جت غريبة لكن النتيجة واحدة.. عدى عليَّ وقت كنت شايف إن اللي بتمناه مستحيل، فبطلت أحلم، لكن ما كنتش أعرف إن دي نعمة.. عشان لما المستحيل ده بيتحقق ساعتها الفرحة هتبقى مضاعفة... أقولك على حاجة.. أنا كنت طاير م الفرحة في أول يوم ليكي في البيت، وكنت طاير م الفرحة أكتر ساعة ما قررتي تلعبي معايا ووقفتي قدامي عريانة! من فرحتي هربت، ولما رجعت وحسيت بدراعاتك بقيت من كتر الفرحة مش حاسس أنا بعمل إيه.. زي ما اكون واحد تاني!

أحيانا نترك الآخرين يتحدثون دون أن نقاطعهم، ليس من أجلهم كي ينفسوا عن أنفسهم، وإنما من أجلنا نحن كي نعطي لأنفسنا فرصة ثانية للتعرف عليهم! اقتربت منه كمن يستجيب لقوة دفع غير مرئية.. ثم احتوتني تلك الظلمة المطمئنة ! شيء خيالي أقرب للحقيقة! لا أدري إن كنت أدخل بين ضلوعه أم أنها ظلمة ما بين شفتيه! في الحالتين كنت على يقين بأنه سبقني هذه المرة وراح يبتلعني بطريقة ما، بينما كنت أتحرر من صلابة عقلي وجسدي! تخلصت منها.. فبدا حجمي الحقيقي معه!

obeikan.com

بيت «فرح»

مجرد علمها بوجوده في محيطها يُشعرها بالاختناق!

تدرك أنه مشروع طاغية، يحاول بكل جهده امتلاك كل ما يمكن امتلاكه ليتسنى له ممارسة سلطته كيفما شاء!

ربما كان ذلك جينا أصيلا فيه أو ربما قد اكتسبه من ثرائه لتؤمن حينئذ كيف يكون الثراء لعنة غير مرئية! لا تزال تشعر بالاختناق، لكن أيهما أفضل: أن تختنق أم أن تتنفس رائحة الموت دون أن يصيبك شيء منه؟!

جلوسه أمامها يذكرها بتلك الليلة التي رأته فيها لأول مرة، عندما حضر فجأة - دون تمهيد أو وسيط - لطلب يدها!

كان يتحدث بثقة مخيفة، وعندما واجهته أدركت أنه جاء لإتمام صفقة!

على الرغم مما كانت تشعر به نحوه فإنها وافقت على الفور، من دون تفكير ومن دون إبداء أسباب!

obeikan.com

«فرح» (هامسة): أنا لازم أتجوز بسرعة!
الأم: بس أنا مش مستريحة للجدع ده! «رفيق»..
«فرح» (مقاطعة): «رفيق» اتقدم بدل المرة تلاتة وكل مرة يترفض، اللي قاعد بره ومش عاجبك ده مافيهوش غلطة، ولو راح هفضل محبوسة هنا طول عمري!
الأب (مقتحما الحجرة): يعرفك منين البيه اللي قاعد بره ده؟!
«فرح»: زي ما قالك، شافني الأسبوع اللي فات وأنا بزور ستي!
العم (دالفا الحجرة): فيه إيه يا جماعة؟! انتوا سايبين الراجل قاعد بره وقاعدين تتكلموا هنا؟!
(موجها حديثه إلى أخيه) وانت.. مش قعدت تقول اللي هياخد «فرح» لازم يتاقلها بالدهب؟! أهو جالك صاحب المغارة بنفسه!
«فرح»: وأنا موافقة!
كانت تدرك جيدا حجم هذه المجازفة، لكن وحدها تلك النظرة المنطلقة من عيني والدها جعلتها تصر على ذلك القرار الجنوني!
لم يكن الأمر بحاجة إلا لموافقة «فرح» حتى تسير الأمور بسرعة مخيفة خلال شهر واحد، وحينما بدأ العد التنازلي لليلة الزفاف حدث ما حدث ومات والد «فرح» محلقا من الطابق العاشر! كان على «فرح» أن تفيق لتعيد ترتيب هذه الفوضى وتتخلص مما يجب التخلص منه؛ لذلك قررت أن تبدأ به أولا! كان أول ما نطقت به بعد أن أنهى حديث المواساة الممل:
- تقدر تديني ضمانات؟
- ضمانات؟! ضمانات إيه؟!
- ضمانات لحياتي معاك.. بعد الجواز!
ضمان إنك ما تهينّيش حتى لو صحيت الصبح لقيت نفسك كارهني..

ضمان إنك ما تتحكمش فيَّ لمجرد إنك الراجل المسئول اللي بتصرف.. ضمان إنك لو حبيت واحدة وشفت إنها الأنسب ليك مني تبلغني.. ضمان إني ما اعيطش بسببك في يوم م الأيام.. ضمان إنك ما تئذينيش وانت بتصارحني بأي حاجة في حياتنا.. ضمان إنك تنفذ رغبتي لو لقيت نفسي مش هقدر أكمل معاك بقية حياتي..

- (عقب فاصل قصير من الضحك) أنا آسف إني بضحك في ظرف زي ده.. بس لو أنا ضمنتلك الحاجات دي انتي ممكن تضمنيلي إيه؟!

- قول انت عايز أضمنلك إيه؟!

- اللي انتي بتتكلمي عنه ده شغل عقود.. بيزنس يعني!

العقود تنفع في حتة أرض، في عمارة، في عربية.. لكن مفيش عقود تنفع في بني آدمين! عارفة ليه؟! لأن البشر صعب يتغيروا بسهولة، ولو اتغيروا التغيير ما بيبقاش تدريجي.. ده بيحصل في لحظة، وفجأة تلاقي نفسك قدام بني آدم ما تعرفيهوش لكن بنفس الشكل.. عقود الجواز غير عقود البيزنس!

- ما تضحكش عليَّ وعلى نفسك.. انت أول ما دخلت البيت ده وانت ماشي في إجراءات صفقة مش إجراءات جوازة!

- أعتبر الكلام ده إنك لسه تحت تأثير صدمة موت أبوكي؟!

- لأ أنا فقت م الصدمة خلاص وأنا آسفة.. مفيش جواز!

توقعت نظرة غضب أو محاولة منه لبدء مناقشة أخرى حتى تعدل عن هذا القرار، لكنها وقفت تتأمله وهو يحمل هاتفه المحمول ومفاتيح السيارة من فوق الطاولة متجها نحو الباب بخطوات ثابتة وملامحه لم تتغير.. كأنه لم يسمع منها شيئا ولم تبلغه بشيء!

غادر وأغلق الباب في هدوء، ما من صفقة حتى تشعرها بأي رد فعل! بالتأكيد يمنحها بصمتِه هذا فرصة للتفكير ومراجعة هذا القرار.. لكنها

ببساطة استطاعت رؤية تفاصيل حياتها معه!

ستصير كالدمية، وسيستهلكها إلى أن يزول الفضول.. وبعدُ ستزداد قائمة مهماتها وستنفق الساعات وحيدة تفكر كيف يمكنها استرجاعه والمحافظة عليه وعلى البيت من كوابيس الانهيار التي تلاحقها! سيلعب على شعورها بالخطر، لتنطفئ هي شيئا فشيئا في لحظات التفكير المميتة! سيناريو محبط، لكنه واقعي إلى حد كبير! ذلك المتعجرف أسفل هذا القناع لا يدري ما هي، ولا ماذا تحتوي قائمة أولوياتها حتى ترفض هي قائمة عروضه وإغراءاته التي لا تنتهي! كل منهما يغادر الآخر مبقيا على لعنته الخاصة غير المرئية.. هو بثرائه، وهي بجمالها!

«لي لي، تعالي هنا، انتي رايحة فين؟!» انتبهت لقطتها وهي تتجه نحو حجرة والدها! تعجبت من كون الباب موارَبا، فتوقفت للحظة أمامه تناديها ربما خوفا من رؤيته إذا صارت بالداخل! ولما لم تجد مفرا من الدخول اندفعت مغمضة العينين وبدت كأنها تسقط نفسها أرضا، تسللت أسفل السرير فوجدت قطتها، ثم قالت في غضب: «لي لي، اطلعي من هنا يلا!».

* * *

هرعت إلى الحجرة عند سماعها نداءه! طلب منها أن تناوله حذاءه من أسفل السرير! انحنت، تمددت، انحسر طرف فستانها البيتي لينكشف جزء من الخطر.. هي بكل شبر فيها خطر! وبينما كانت تعافر لتطول يدها الحذاء، أحست برقبتها تحترق بأنفاسه بطريقة ما، وبيده يمررها فوق صدرها!

* * *

انتفضت كمن لسعته عقرب! حملت قطتها وهربت وراحت تغلق الباب خشية تسلل أشباح بطعم الواقع، تاركة الحجرة بظلامها وسكون كل شيء فيها!

الدولاب: هي مالها جريت مفزوعة كده ليه؟!

السرير: يعني انت مش عارف؟! أكيد افتكرت اللي حصل!

الدولاب: أيوه بس ده مات خلاص، كل دي أوهام في دماغها!

السرير: مات بعد إيه؟! وبعدين دي مش أوهام، دي حقيقة غصب عنها بتفتكرها! ثم إن الراجل ده من يومه وهو ميت! لما كان بينام كنت بحس بخشونة جلده وجسمه! كنت بسأل نفسي ازاي الناس قادرة تسلم عليه وازاي مراته كانت قادرة تبقى في حضنه؟!

الدولاب: التعود يعمل أكتر من كده في البشر!

السرير: وأنا أقدر أقولك إن فيه فرق كبير بين بشر اتولدوا من لحظة شهوة، وبشر اتولدوا من لحظة حب! ما تستغربش.. ساعات اللي بيحصل في البيوت بيبقى أبشع من أي حاجة بتحصل في الشوارع.. استحالة حد يقدر يخمن إيه اللي ورا البيبان وإيه اللي جوه البشر!

اتجهت «فرح» إلى المطبخ لاهثة وهي تنفض بيديها آثار ما شعرت به منذ ثوانٍ! لم تكن مدركة لما تحمله من خطر، جميع ثيابها فشلت في إخفاء ما لديها، كأنه بجسدها مغناطيس ما! طوال سنوات ظلت حبيسة جدران البيت عقب انتهائها من الثانوية العامة بأوامر عليا من أبيها! أراد أن يُحكم قبضته على دنياها لتبقى صغيرة ومحدودة فلم تجد متنفسا إلا في زياراتها لبيت جدتها! وهناك كانت تتعرف على أناس جدد حتى إن كانوا غير حقيقيين بفضل كتب وروايات قديمة كانت ملكا لجدها يوما ما! حياتها تلخصت في حجرتها والشارع الذي يفصلها عن «البيت الكبير» و«رفيق» الزائر الدائم لجدتها، الذي لولا وجوده ربما كانت قد أقدمت

بشجاعة على الانتحار!
وضعت رأسها أسفل الصنبور تاركة الماء البارد وهو يتسلل عبر شعرها.. ودت لو نجح الماء في اختراق دماغها بطريقة ما ليجري في مساراته عله ينظفه من آثار ذكريات أتلفته!

* * *

انهمكت في تنظيف الأطباق ولم تدرِ أنه كان يقف على مقربة منها..
«طب عليَّ النعمة أجمل واحدة شفتها بتغسل صحون»!
هكذا انتبهت لوجوده، ابتسمت: «بابا.. تحب أعملك شاي؟!»
فأجاب: «ماشي، بس قبل الشاي بقى من حقي آخد بوسة»..
التفتت إلى ما كان في يدها ظنا منها أن قبلته ستكون فوق خدها، لكنها تسمرت لدقائق مذهولة حتى بعدما غادر المطبخ بعد أن شعرت بلسانه بين شفتيها!

* * *

يصبح الأمر متعبا عندما تدرك مدى قوتك، وأنك ما زلت تتنفس بعد كل ما حدث، وأنك ستظل تتنفس حتى بعد كل ما سيحدث!
ها هي تعيد ما فعلته حينها.. تناولت كوب الماء، أخذت رشفة تغسل بها فمها ثم بصقت بشدة!
رشفة أخرى ثم بصقة، ثم رشفة ثم بصقة.. إلى أن اطمأنت أنها تخلصت من شبح فمه الكريه لتلقي ما تبقى في الكوب في جوفها.. خانتها يدها فتهاوى الكوب على الأرضية منفجرا لتتناثر شظايا الزجاج في كل اتجاه!
الزجاجة: حاسبي على نفسك يا «فرح» لتجرحي إيدك!

obeikan.com

السكين: سيبيها تتجرح.. الغبية!
عاشت عمرها خايفة تمسك سكينة لتتئذي، ما تعرفش إن الأذى ألوان غير لون الدم!
البعض لا يرحلون كما ينبغي.. كما نرغب نحن أن يرحلوا!
ما فائدة أن يختفوا من هذا العالم ولا يختفوا من عقولنا؟!
ما فائدة رحيلهم من البيوت والشوارع في حين أنهم يرفضون الرحيل منا؟! بعض منا قد تألم وتشوَّه بسبب سيطرتهم عليه فلم يعد لنا من الأساس.. إن رحيل البشر يخدم الطبيعة، لكنه لا يخدم البشر أنفسهم! يجعلنا ذلك في حاجة إلى حالة من اللاوعي تختلف حتى عن حالة النوم!
«فرح» تستعيد كل شيء رغما عنها ما إن تقع عينها على أي ركن في البيت! حتى في أثناء نومها، فذلك لا يتوقف أبدا! الكابوس نفسه لم يتغير حتى بعد موته.. ربما لأنها لا تصدق بعدُ أنه لم يعد له وجود!
جسدها الذي تحس أنه عارٍ على الرغم مما ترتدي من ثياب، يده التي تتلاعب بكل مساحة فيها على الرغم من انكماشها كقوقعة!
في حجرتها كانت تهرب بعينيها من شبح آخر لقاء كان بينهما!
أخبرها أنه لن يسمح لها أن تصير ملك رجل آخر، فأخبرته هي أنها ستحارب لإتمام هذا الزواج!
أطلقت ما كانت تريد قوله ثم هرعت إلى الخارج هاربة منه، وبعد دقائق عادت لتجده قد اختفى وشباك الحجرة مفتوحا لتتسلل منه أصوات نداءات وصراخ استطاعت الوصول إلى الدور العاشر!
انتبهت «فرح» لوجود أمها وقد جلست فوق السرير تتأملها، منتظرة أي دليل على وجود حياة فيها! لم تفعل سوى أنها بادلت نظراتها بابتسامة مرهقة ثم عادت لتشاهد العالم عبر النافذة.. قالت الأم:
- لقيت الباب موارب فدخلت، اتعورتي م الكوباية اللي اتكسرت؟!

- (دون أن تنظر إليها) مش الحاجات دي اللي بتعورني!

- الأسبوع اللي فات كنتي عاملة زي اللي نايم! مش حاسة بأي حاجة حواليكي بسبب اللي حصل.. دلوقتي بقى انتي عاملة إيه؟!

- المشكلة مش في دلوقتي.. المشكلة في بكرة!

يعني مثلا أنا ما بقيتش أعرف بعد كل اللي حصل إيه اللي ممكن يفرحني وإيه اللي يزعلني! إيه اللي ممكن يرضيني وإيه اللي ممكن ييأسني!

أنا ماعنديش إحساس بأي حاجة دلوقتي.. حتى الناس، حتى أنا... في نفس الوقت حاسة إني عايزة أمشي بميكروفون وسط الناس وأفضل أحكي أحكي أحكي من غير ما اخد نفسي حتى، (تكمل ضاحكة) شرط إن يكون عندهم الزهايمر أو ما بيعرفوش عربي!

- لو عايزة تحكي، اختاري كويس قوي اللي هتحكيله، وأهم حاجة ما يكونش شايف نفسه عايش أسوأ الكوارث!

لما بنفضفض ما بنحتاجش حد يقولنا حل للمشكلة قد ما بنبقى عايزين اللي يحس بينا من غير ما يستخف باللي بنقوله! (لاحظت وجود كتاب أسفل الوسادة فقالت وهي تتصفحه بدهشة) دي قصص رعب!! كنتي بتقري دراكولا؟!

- (بابتسامة ساخرة) من مكتبة جدي، قلت أجرب أقرا حاجة جديدة.. خيالية! الغريب إني لقيت نفسي مصدقة الخيال أكتر من الواقع.. تعرفي، كارثة دراكولا اللي أنا مش قادرة أتخيلها ما كانتش في إنه ما بيقدرش يطلع بالنهار ويدوق حرارة الشمس، الكارثة اللي بجد إنه ما كانش بيشوف نفسه في المراية لما بيقف قدامها!

- بيتهيألي لازم تبطلي قراية الكتب شوية وتدي لنفسك أجازة.. صحيح، «رفيق» جاي النهارده (ثم أكملت بتلعثم) يعني.. عايز يطمن عليكي!

- ما اظنش هيلاقيني!

- انتي خارجة؟!

- مش شرط! سواء خرجت فعلا أو فضلت في البيت، في الحالتين مش هيلاقيني.. أنا رايحة آخد دش!

غادرت الحجرة وهي تحمل ثيابها متجهة إلى الحمّام فاستوقفها كرسيه الذي لم يعد يشبه أثاث الصالة على الرغم من كونه قطعة منه!

هنا اعتاد الجلوس، الكلام، الصياح، إصدار الأوامر.. وحتى المراقبة!

ربما لا بد أن يكون لكل طاغية كرسي!

تدرك الآن أنها بدأت تستيقظ بعكس حالها الأسبوع الماضي! عقب الحادث تجمدت دون فعل أو رد فعل كأنها بانتظاره، بانتظار ظهوره، عبور خياله، سماع صوته! ظلت متجمدة في سريرها لمدة أسبوع دون حراك! لم يكن ذلك يعني أنها حزينة، لكنها فقط أرادت أن تتأكد من رحيله بالفعل بتأجيلها الإحساس بالفرح.. أو بالأحرى تأجيل الإحساس بالوعي! ذلك الوعي الذي عاد بأثر رجعي فراح يحطم عقلها أو ما تبقى منه على مهل!

لم يكن بوسعها سوى أن تلقي بثيابها فوق الكرسي لتغادر المكان!

* * *

opaikan.com

جذبها من يدها قبل أن تتجه إلى المطبخ.. أجلسها فوق رجله قائلا: «بتوحشيني حتى وأنا في أيام الأجازة» كان بوسعها أن تتخلص من قبضته لكنها وجدتها فرصة لفهم ما يجري، سألته: «أنا بقيت أخاف منك!»

فأجاب وأصابعه تنغرس في ظهرها: «تخافي ليه؟

أنا مش عايز حاجة من تحت!»..

فاقت إجابته قدرتها على إبداء أي اختلاجة في جسدها، حتى إنها لم تعد تشعر بلمساته، كانت تعيد فهم ما قاله في اللحظة مائة مرة، تنظر له لكنها لم تكن تراه!

كان يتكشف أمامها في كل لحظة ليبدو غريبا وخطيرا.. حتى سمعته: «يعني انتي عاجبك أمك دلوقتي؟

دي ما اتغيرتش، دي اتحولت!» بيأس قالت: «لو كانت لقت اللي يشيل معاها المسئولية ما كانتش بقت كده، بلاش تاخد فكرة عن الستات م التليفزيون.. ولو مش قادر تكمل معاها، اتجوز تاني، لكن أنا...» بنظرة جنون بدت طبيعية دون ادعاء: «ما توجعيش دماغي، قلتلك ما تخافيش»!

* * *

openelkan.com

الأريكة: أكيد ناوية تخلص منك، شفت كانت بتبصلك بكرْه ازاي؟! رمت هدومها عليك عشان مش عايزة تشوفك!

الكرسي: المجنون.. مع كل عريس كان بيتقدم لها عينيه كانت بتزوغ عليها أكتر، في نفس الوقت هي ما كانتش قادرة تحكي أو حتى تلمَّح بحاجة لأي حد ولا حتى لأمها، فمش هتضايق لو حبت تخلص مني! أصلا البشر لما بيبقوا واقعين في مشكلة ما بيبقاش عندهم القدرة إنهم يحسوا بأي حاجة غير نفسهم!

عند خروجها من الحمّام اصطدمت أمها بمظهرها ولم يصدق شقيقها ما رآه منها! لم ترتدِ ملابسها، وإنما لفت جسدها الأبيض بالمنشفة!

عبرت الصالة دون أدنى التفاتة، بينما كانا يتبادلان نظرات التساؤل في صمت! لم يطل الوقت حتى أخرج الأخ علبة سجائره من جيبه ليشعل إحداها ببساطة أمام والدته، وقد أظهرت نصف ابتسامة لا يشوبها سوى مزيد من التفكير!

قد يبلغ المرء أعلى درجات السعادة عند يقينه بأنه لا يملك شيئا على الإطلاق؛ فحينئذ لن يضطر إلى ممارسة فعل الخوف من فقدانه يوميا، حتى جسده قد لا يكون ملكه بالفعل في حين أنه صار من السهل العبث به دون أن يملك أي وسيلة للدفاع عنه!

في حجرتها أرادت «فرح» القيام بتجربة خاصة!

استلقت فوق سريرها عارية وقد أغمضت عينيها ثم راحت تردد بين لحظة وأخرى: «هو مات، مش هنا، مش هيكون هنا!»..

أمر عادي أن يقرأ المرء قصص الرعب، إلا أن ذلك قد يتحول إلى أمر خطير عندما يصدق ما يقرؤه! انتحاره من شباك حجرتها بالذات وقراءتها لقصص الرعب مؤخرا أمور جعلتها ترفض حقيقة اختفائه من هذا العالم أو حتى من هذا البيت!

openkan.com

ولأنه لا بد من الاستيقاظ يوما ما فقررت أن تواجه الحقيقة بجسدها لا بعقلها فقط! ربما هو أمر خاص لا يقدر سواهن على القيام به وتحمله؛ فالنساء يدركن جيدا قيمة الجسد؛ لذلك فهن الأكثر عرضة للألم وخيبة الأمل والجنون!

الستار: هي اتجننت ولا إيه؟!

الشباك: ما اتجننتش، دي بتحاول تتأكد إنها بقت حرة! حبسة الأوضة اللي كانت عايشاها وتكتيفة الهدوم اللي كانت بتلبسها عشان ما تبينهاش راحت خلاص! أنا بستغرب.. إزاي حاجة زي «فرح» تتحبس؟!

الستار: انت عايزها تعمل إيه؟! مش انت عملت اللي عليك وموتّه؟!

الشباك: أنا ساعدته.. ما موتوش!

الستار: أنا شفتك! انتهزت فرصة إنه قرب منك وفي لحظة فتحتك زادت ووسعت، ضميت الضلفتين الإزار بقوة وزقيته.. وقع.. مات!

الشباك: ما سمعتيهوش لما قالها قبل ما تطلع تجري إنها لو اتجوزت يبقى على جثته؟! مجرد إنه قرب مني عرفت إنه بيفكر فعلا في الموت لكنه أجبن من إنه يروحله.. أنا بقى وقفت حيرته دي!

خدمته وخدمتها!

«فرح» مشكلتها ما كانتش في الظروف، مشكلتها كانت في البني آدمين!

الستار: أنا كنت بسأل نفسي: ازاي قدرت تفضل عايشة؟!

الشباك: فضلت عايشة عشان قدرت تتخيل كل السيناريوهات المخيفة لدرجة إنها ساعات كانت بتصدقها وتقرر تتعامل معاها زي ما تكون حقيقة!

انتظرت حتى تشعر بلمسته فلم تأتِ! فتحت عينيها فلم تجده!

وقفت أمام المرآة تتأمل جسدها.. ربما للمرة الأولى! تساءلت إن كان الخطأ يكمن في عقله أم أن جسدها هو الخطأ بعينه! لكنها لم تجد

جوابا فقررت البحث عنه بنفسها! ارتدت أجمل فساتينها، تركت شعرها ينسدل على كتفيها، ثم حملت حقيبة يدها الصغيرة وغادرت الحجرة!

استوقفتها أمها: «انتي رايحة فين؟!»

فأجابت: «أي مكان!»

سألتها: «لوحدك؟!»

فردت: «وإيه الجديد؟!»

عادت لتسألها: «ليه؟!»

فقالت: «من غير ليه.. أنا عايزة أتحرك، عايزة أتوه! هخرج وما اعرفش السبب! يمكن تحصل المعجزة وأحب ويمكن أفضل زي ما انا، يمكن أبقى مشهورة ويمكن أقضي عمري مش متشافة، يمكن أبقى غنية ويمكن أبقى شحَّاتة، يمكن ألاقي الونس والحرية مع بعض.. المهم أتحرك!»..

قبل أن تغادر أخبرتها أمها بنبرة قوية: «أنا هبيع الشقة!»..

لا تذكر «فرح» المرة الأخيرة التي بكت فيها.. ربما منذ سنوات!

هذه المرة لم تشعر بحالها إلا وهي تعانق أمها باكية ضاحكة!

أصبحت حرة، على الرغم من علمها أنه يوما ما ستخنقها هذه الحرية.. لكنها على كل حال هي مستعدة لتلك اللحظة، فهي على الأقل اختارت وسيلة موتها بإرادتها!

قبل خروجها من البناء اصطدمت بـ«رفيق»!

كان ذلك أول ما واجهته في عالمها الجديد!

أسباب الفرح ترتبط دوما بأسباب الحزن التي ما إن تزول حتى تزول معها أسباب الفرح أيضا.. ولا يمكنك حينها إلا التعرض لأسباب حزن أخرى لتلقى أسباب فرح جديدة! مواجهتها لـ«رفيق» كانت باردة!

لم تبتسم بلهفة كما اعتادت، إنها حتى لم تكن تراه!

علمت أن المشكلة ليست في أن يعشقها أحدهم وهي على هذا الحال،

بل في قلبها نفسه الذي لم يعد قادرا على العشق أو حتى الكراهية!
هي لحظة اختلطت فيها كل المفاهيم بداخلها!
لحظة أدركت فيها أن الحب شيء سخيف قصير الأجل، والجنس أمر مقزز مثير للغثيان، والزواج توريطة وحكم بالمؤبد! أكملت طريقها غير عابئة به بينما تركته مذهولا يتطلع ببصره إلى الدور العاشر، شاعرا بأن من حلق من النافذة منذ أسبوع.. كانت «فرح»!

- تمت -

obeikan.com

الفهرس

٥ بنت العشرين
١٥ لا تكن صديقي
٢٣ سوق الجواز
٣١ قصقصة جناحات
٤٥ الحادثة
٥٧ في بلد البنات
٧٧ قسمة ونصيب
١٠١ بيت فرح

obeikan.com